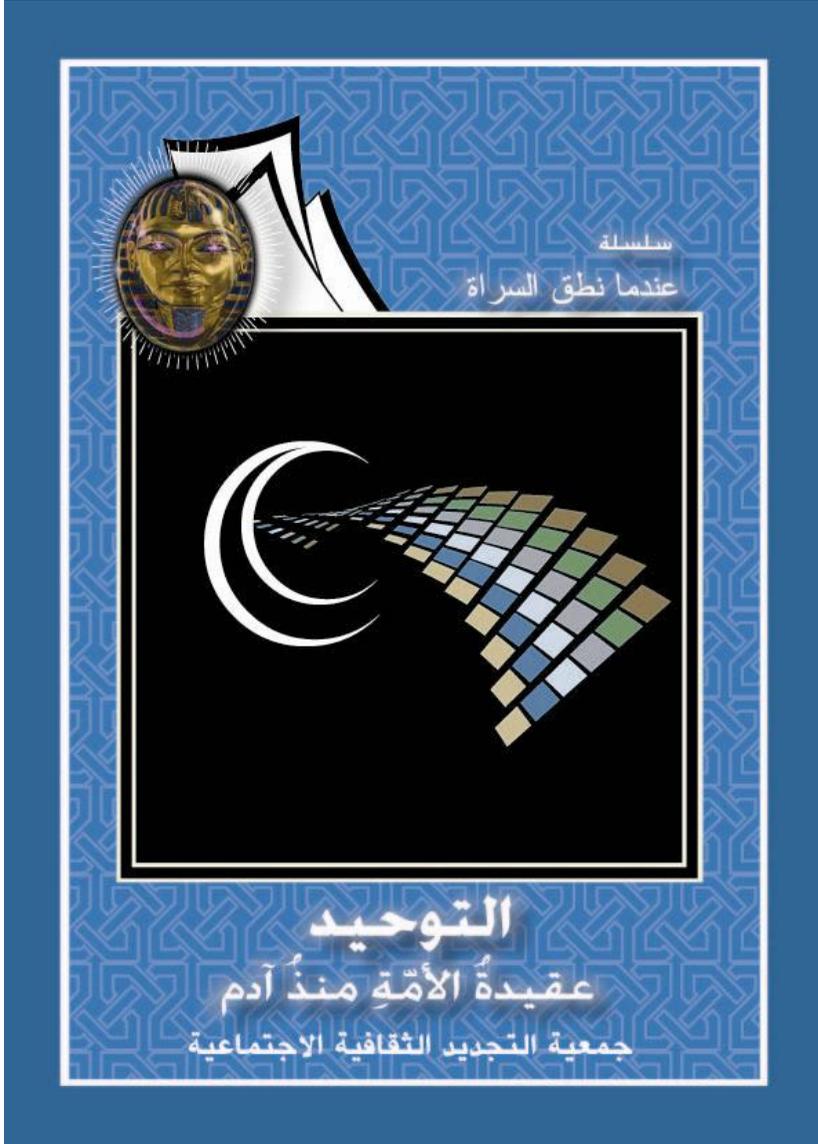


[www.arab-unity.net](http://www.arab-unity.net)





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سلسلة عندما نطق السراة

# التوحيد عقيدة الأمة منذ آدم

قسم الدراسات والبحوث  
جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية  
مملكة البحرين

الطبعة الأولى

2005



## المقدمة

لا يختلف اثنان في أنّ النزعة الدينية لدى الإنسان قديمة.. قَدَم وجوده على الأرض، أمّا كيف نشأت فيه هذه النزعة؟ وهل كانت بتأثير البيئة والمحيط؟ أم ارتبطت بأصل كامن في تكوينه الداخلي؟ فهذا ما اختلف فيه الباحثون بحسب اختلاف الأيديولوجيات والمصالح، وعليه لم يُنظر للموضوع بعين الدقة العلمية، وكان لا بد- للإجابة عن هذه التساؤلات- في البداية من تحديد مركز الإنسان الأول ونقطة انطلاقته، واستكشاف جذور حضارته بدراسة آثارها، وما كان ذلك ليتم لولا التقدم العلمي الهائل، فكانت المبادرة بيد أولئك الذين امتلكوا ناصية العلم بعد أن ظهر بمنهجه المادي على خلفية الصراع مع السلطة اللاهوتية للكنيسة التي صادرت الإبداع وحرية التفكير، وكانت النتيجة أن حُسم الصراع لصالح العلم ولكن بعيداً عن الروح والأخلاق أيضاً!

وكانت منطقتنا بعمقها التاريخي المعنوي، والاستراتيجي المادي والبشري، محط أنظار الطامعين وبدل أن يُوضع العلم في خدمة البشرية استُغل في تحقيق الأطماع الاستعمارية في المنطقة، فمزقوها إلى أشلاء واصطنعوا بينها حدوداً جغرافية وأخرى أيديولوجية فهذه موالية للغرب وأخرى للشرق، وزرعوا بينها بذور

الشقاق والنزاع. ولم يكتفوا بالغزو العسكري الخارجي لأنه إلى زوال مهما طال به الزمان، فعمدوا إلى غزوها من الداخل كفعل الأرضة تآكل منسأتها<sup>1</sup> حتى لا تقوم لها قائمة، عمدوا إلى تراثها الحقيقي فشوهوه وحرّفوه خصوصاً ما يشير منه إلى صلة هذه الأمة بالسماء وإيمانها بخالقها، لأنهم أدركوا أنّ به نهضتها وعزتها إنّ هي رجعت إليه وتمسكت به، ساعدهم على ذلك رحلاتهم الاستكشافية وبعثاتهم العلميّة لدراسة المنطقة وآثارها الحضارية المدرسة والمنظّمة بعضها تحت التراب من مدونات ورُقْم وجداريات، وكان لهم سبق دراستها وتحليلها وفق منظورهم وخلفيتهم المتأثرة بتزويرات اليهود عن تاريخ المنطقة وجغرافيتها، وكان أن وُظفت هذه الدراسات لخدمة المشروع الاستعماري الذي كان من نتيجته غرس الغدة السرطانية في قلب الوطن العربي، هذا فضلاً عن أخطاء الترجمة المقصودة أو بغير قصد، لتطلع علينا دراساتهم عن تاريخ شعوب هذه المنطقة وعقائدها، تحت عنوان المنهجية العلميّة المدعاة، باستنتاجات خاطئة، تصف في جانب منها تاريخنا القديم ولأسيما في بلاد وادي النيل بالشرك وعبادة الأوثان وتعدّد الآلهة! في خطة مدروسة تقودنا إلى التسليم بالنتيجة المعدة سلفاً وهي أنّ التوحيد هناك بدأ بموسى (ع) وما قبله شرك ووثنية! وتقطع في جانب آخر منها الفروع عن الأصول

---

<sup>1</sup> - الأرضة: دويبة أرضيّة تأكل الخشب، المنسأة: عصا الاتكاء.

بتكرها لحقيقة الأصل العربي لسكان هذه المنطقة، لتكون المحصلة أنّ العرب هم سكان شبه الجزيرة العربية فقط، وأنّ تاريخهم يبدأ بما قبل البعثة النبوية أي بعصر الجاهلية، في رسالة واضحة للعرب مؤداها القول: أنّ هذه بدايتكم وأصولكم.. جهلٌ وظلمات وتخلف! وبهذه الطريقة الخبيثة فصلوا هذه الأمة عن عمقها التاريخي والحضاري، إلا قليلاً من المنصفين الذين وضعوا النقاط على الحروف واعترفوا بالفضل لأهله.

ومما زاد الطين بلةً أننا قبلنا بذلك التوصيف لنا من قبل الغرب، وأخذنا نردده، ولا زلنا، لأجيالنا القادمة عبر مناهج الدراسة ومنابر الإعلام والتثقيف الديني، دون أن يكون لعلمائنا ومتقينا دورٌ يُذكر في تمحيص هذه المقولات ولا في دراسة تاريخ المنطقة واكتشاف آثارها وتفكيك أساطيرها، فنحن الأقرب من غيرنا إلى فهمها، والأجدر بمعرفة اللغة التي كُتبت بها لأنها لغتنا، وبالتالي التوصل إلى حقيقة ترابط تراث هذه الأمة وتواصله ووحدته منذ القدم، ولكن تجدنا على عكس ذلك كله، اكتفينا بالنقل عن الآخرين والترويج لبضاعته! تجدنا - على سبيل المثال - حين الكلام عن المكوّن السكاني لشبه الجزيرة العربية قبل البعثة نقول: هناك اليهود والنصارى والعرب عبدة الأوثان! وكأنّ اليهود والنصارى هؤلاء ليسوا عرباً! وكأنّ الذين ارتحلوا شرقاً وغرباً من سريان وأموريين

وفينيقيين تركوا بصماتهم الحضارية أينما حلّوا لا يمتّون إلى هذه المنطقة بصلة! عندئذٍ، و فقط عندما غابت هذه الحقيقة عن وعينا، ساغ لنا وصمُ الأولين بالشرك والوثنية وتعدّد الآلهة دون أدنى إحساس منا بالإجفاف في حقهم، أو النكران لفضلهم!

فهل كانوا كذلك حقاً؟ هل كان الأولون فعلاً يعبدون آلهة متعددة؟ وهل يصح القول - على إطلاقه - أنّهم عبدوا النجوم والكواكب والحجر والشجر والماء والنار والحيوان، كما عبدوا الأولياء والآباء أيضاً؟ أم أنّهم ظلوا لفترات طويلة موحدّين ومؤمنين بتعاليم السماء، واستطاعوا بهذا الإيمان أن يشيدوا حضارتهم في بلاد سومر ووادي النيل، ولكننا نحن الذين نقصر اليوم عن فهم عقيدتهم؟ ثم أين ذهبت ثمرة دعوات الكثرة الكاثرة من الأنبياء والرسل طوال التاريخ الإنساني؟ وإذا كان الإنسان في أحقابه الأولى ليس موحدّاً - كما يتوهمون - فكيف وصل إلى عقيدة التوحيد؟ كيف نشأت النزعة الدينية عند الإنسان الأوّل؟ وهل صحيح أنّه تدرّج من طور التعدّد إلى طور التمييز والترجيح ومنه إلى الوحدانية كما يذهب إلى ذلك أكثر الباحثين في تاريخ الديانات وأصلها؟ أم أنّه تعلّمها تعليماً ربّانياً منذ البداية؟

وانطلاقاً من هذه الإشكالية نرى أنّ هذا البحث يسعى للإجابة عن مجموعة من التساؤلات يمكن حصرها فيما يلي:

1- هل أنّ الإنسان الأول عاش بلا عقيدة، ولم يكن لديه أدنى تصور عن الخالق والخلق والكون؟.. أم أنّ ثمة مشروعاً ربانياً بدأ مع بدايات خلق الإنسان لتأهيله لخلافة الأرض؟

2- وهل مرّ على الأُمَّة زمانٌ خلت فيه من الموحّدين لله تعالى؟ أم أنّ تراث الأُمَّة يحتفظ لنا بنماذج من الموحّدين طوال التاريخ؟

3- وكيف عبّر أولئك الأوائل عن عقيدتهم التوحيدية؟ وما تفسير ما قيل عنهم من أنّهم عبدوا آلهة متعددة؟

وفي ضوء هذه التساؤلات جاء البحث في ثلاثة فصول، يعتني الأول منها بإثبات التوحيد منذ بداية خلق الإنسان وأّته مرتبط بالمشروع الرباني لجعل الإنسان خليفة، بينما يورد الفصل الثاني ما يثبت استمرارية خط التوحيد وتواصله بذكر نماذج للموحّدين عبر الأزمان، أما الفصل الأخير فيعالج بالتحليل المنطقي واللغوي كيف عبّر الأولون عن عقيدتهم التوحيدية، والأسباب التي أدت إلى تشويه هذه العقيدة.

ولابد للقارئ أن سيلحظ - بقليل من التأمل - تأثير إجابات تلك الأسئلة على نظرته إلى مَنْ سبقه في الإنسانية إنْ بالسلب أو بالإيجاب، مما ينعكس عليه في نظرته اليوم تجاهها، الأمر الذي تُعدّ آثاره خطيرة في حالة الإجابة الخاطئة على تلك الأسئلة! إذ سيُنأى

بنفسه عن النظر إلى الأولين كامتدادٍ تاريخي له، وسيرياً بها عن أن تكون بينه وبينهم صلة هي صلة الإسلام، باعتبارهم - حسب ظنّه - أهل وثنية وشرك! وليته يقف عند حد الاعتقاد بما ليس فيهم إذن لهان الأمر، ولكنه يتعدّاه إلى التعامل على أساس ذلك الاعتقاد.. إلى التقاطع والتدابير والتفرّق في الدين وكأئنا لم نسمع قوله تعالى: (شَرَخَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)(الشورى:13)؟ وقوله أيضاً: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13)؟ فأين التعارف في مناهجنا؟ بل أين هو قبل ذلك في وعينا وتفكيرنا؟

إنّ الإجابات الخاطئة عن تلك الأسئلة المتعلقة بعقيدة الأولين، أو تركها معلقة دون إجابة بحجة أنّها لا تهمنا اليوم، ساهم بشكل أو بآخر في بناء العقلية الضيقة التي لا ترى في الدين أفقه الواسع وفضاءه الرحب، فأقامت الحواجز والسدود بين أصحاب الشرائع السماوية، ورسمت الحدود فيما بينها، ففريق في الجنة وفريق في السعير، بل وصل الأمر إلى حدّ التحزّب المذهبي بين أصحاب الشريعة الواحدة، وبات كلُّ حزب بما لديهم فرحين، فصرنا إلى هذا التشرذم والضياع دون أن نرى بصيص النور في نهاية النفق،

وطالما بقيت هذه العقلية هي السائدة فلن يتغير من الأمر شيء، فهل تساهم محاولات إعادة النظر بعين الباحث عن الحقيقة، بعد أن نخلع عن أعيننا عدسات الاتهام والريبة التي طالما نظرنا بها إلى تراثنا القديم، في تأسيس أولى خطواتنا نحو التغيير؟ نرجو ذلك.

## الفصل الأول

### المشروع الربّاني .. الإنسان خليفة

لايزال التفسير المادي لتطور الإنسان عاجزاً عن تفسير طبيعة الطفرة الحضارية التي حدثت للإنسان منذ أواخر آخر العصور الجليدية، حيث منها بدأت طفرة الحضارة والصناعة والمدنية، قفزة لا يمكن تفسيرها بالنمو الطبيعي المفترض لحيوان ما، مهما كان ذكياً، من حالة التوحش إلى حالة المدنية.

فالأنثروبولوجيا<sup>1</sup> لا يثبت التدرّج في تطور الإنسان، فإذا ما افترضنا أن وجود الحيوان البشري قد حدث قبل مليون عام فإنّ كل الآثار والمكتشفات تدلّ على أنه ظلّ مدة 950 ألف سنةٍ منها حيواناً متوحشاً وهمجياً ثم فجأة بدأت بوادر الحضارة في قفزات لا يمكن تفسيرها. فإذا ما علمنا أن الأطروحات الدينية لا تذهب بوجود الإنسان المعلم إلى أبعد من هذا التاريخ، علمنا أن الأديان تتحدث عن الإنسان وأنه خلق آخر غير البشر الذي يتحدثون عنه. ومهما بقي العالم فلن يتطور حيوان آخر ليبلغ مبلغ الإنسان لأنّ هذا محال، لم يحدث ولن يحدث حتى لو بقيت النملة تكرر وجودها بلايين السنين،

---

<sup>1</sup> - الأنثروبولوجيا (Anthropology)؛ علم الإنسان: علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته. منير البعلبكي، المورد، ص52.

فهناك إضافة جديدة خارجية قد دخلت على المخلوق البشري قد ارتفعت به عن الهمجية وهي ما تسميها الأديان بـ"الروح" النفخة القدسية وهي غير النفس التي هي قوام الحياة المادية كما في سائر الأحياء.

## مدخل

في الأبحاث التي تتناول حياة الإنسان الأولية على هذه الأرض يصور الباحثون الإنسان البدائي على أنه عاش ردهاً طويلاً من الزمن دون أن يكون لديه أدنى معرفة بخالقه وخالق هذا الكون وما حوله وذلك لمحدودية عقله! "فقد عاش أول أمره حياة بدائية تحوطها مئات الأخطار والأسرار، وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التي لم يستطع إدراكها إدراكاً علمياً على أن يتوهم لها تفسيراً.. ويتخيل أصولاً ووقائع يرتاح إليها وتزيل حيرة نفسه. وكان أول ما ملأ رأسه من تلك الخوارق التي تحيط به إيمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات. وبدأ الإنسان يتأمل تلك القوى، ويجسم كل شيء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول إليه فيجعله إلهاً، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقربانين.. فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق

والرعد.. كلها آلهة طفق الإنسان ينسج حولها القصص (!).. ويتناقلها خلفا عن سلف، جيلا بعد جيل"<sup>1</sup>.

هكذا يُنظر إلى الإنسان وهو في مراحل حياته الأولى، كائناً عاش بلا عقيدة، وبلا تصور - ولو كان بسيطاً- عن خالقه وخالق هذا الكون وما فيه مما حوله، خُلق وهو خالٍ من العقيدة وئرك للظروف المحيطة به لتشكل له عقيدته عبر تفاعله مع سلسلة الأحداث الطبيعية التي تجري أمامه، فالرعد والبرق والمطر، والأعاصير والزلازل والبراكين، والشمس والقمر وحركتهما الظاهرية من الشروق إلى الغروب، وما ينتج لهما أحياناً من اختفاء جزئي أو كلي على غير العادة (الكسوف والخسوف)، كل تلك الظواهر هي التي ألهمته العاطفة الدينية! فهو نتيجة ضعفه وعدم استيعابه لما يجري حوله دأخله الخوف منها وبالتالي احتاج إلى الالتجاء إلى ركن وثيق فكانت هذه بداية نشوء العاطفة الدينية!! فكلّ ظاهرة لم يفهمها الإنسان البدائي وضع لها إلهاً وعبده، فإذا فاض نهرٌ ولم يستطع أن يمنعه أو يحول دونه كان يضع لهذا النهر آلهة أو رباً ويعبده، وإذا رأى البرق أو الصاعقة وقد قتلت إنساناً وضع لها رباً وبدأ بعبادته وتقديم الأضاحي له!

---

<sup>1</sup> - سليمان مظهر، قصة الديانات، ص19.

أما فكرة الآلهة المتعددة فمنتشؤها، كما يرى البعض، هو وجود المتناقضات في هذا الوجود، فهناك الخير والشر، والحياة والموت، والخصوبة والجذب، والنور والظلام، فجعلوا لكل ظاهرة من تلك الظواهر إلهاً خاصاً بها حيث لا يمكن تصور اجتماعها في إله واحد (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ) (ص:5). كما أن الإنسان، نتيجة مستواه المعرفي المحدود آنذاك، عبد كل شيء تقريباً، عبد الحجر والشجر والماء والنار والهواء والتراب وكل رموز الأشياء أو الكائنات الموجودة معه في الأرض! فإذا صحَّ كل ذلك، فكيف تكون لله سبحانه الحجة البالغة على أولئك الأقوام في عدم معرفته، والقيام له بحق عبادته؟

وأما بالنسبة إلى مراحل تطور العقيدة عند الإنسان، يقول "العقاد": "ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات. فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى"<sup>1</sup>. ويقول أيضاً: "يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة

<sup>1</sup> - عباس محمود العقاد، الله، ص6.

والأرباب، وهي: دور التعدد، ودور التمييز والترجيح، ودور  
الوحدانية.

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد  
بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات. ويوشك في هذا الدور  
أن يكون لكل أسرة كبيرة ربّ تعبده، أو تعويذة تتوب عن الرب في  
الحضور، وتقبل الصلوات والقرابين.

وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب  
على كثرتها، ويأخذ ربّ منها في البروز والرجحان على سائرها. إما  
لأنه ربّ القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة،  
وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً  
مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة.

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة، فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف  
بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ويحدث في  
هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها  
سيادة تاجها وصاحب عرشها<sup>1</sup>.

وتفترض وجهة النظر هذه أن الأمة لا تصل إلى هذه الوحدانية  
الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة، ويتعذر فيها

---

<sup>1</sup> - عباس محمود العقاد، الله، ص13.

على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول البدائيين وقبائل الجاهلية. فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية.

فالعقيدة في نظر العقاد هي إنتاج بشري وليست وحياً سماوياً، تطوّرت إلى الوجدانية بمرور الأزمان كما تطوّرت باقي العلوم! فهل فعلاً تُرك أمرُ العقيدة للإنسان؟ لتشكيلها حسب تطوّره المعرفي لتبدأ بالمحسوس ثم تأخذ طريقها في التطور حتى تصل إلى قمة التجريد كما يذكر الدكتور محمد شحرور: "لقد خضع التوحيد للتطور المعرفي، فتطور من المشخص إلى المجرد، ومن التعددية إلى الوجدانية، فنرى في هذا المستوى مختلف الدرجات الموجودة موضوعياً، من وثنية طبيعية (ظواهر الطبيعة والنجوم والكواكب) إلى وثنية صنمية، إلى وثنية أسلاف وأولياء تتجسد بزيارة الأضرحة والقبور. ونلاحظ في هذا التدرج ارتفاع المستوى، حيث نرى في كل درجة بقايا من الدرجة التي سبقتها"<sup>1</sup>.

إن إخضاع العقيدة لعملية التطور المعرفي بهذه الطريقة يعني أنّها مرت بمراحل من التطور طبيعية كان لا بدّ من أن تمرّ بها، وهذا يجعل من الآيات القرآنية التي تتعرض بالنقد والتسفيه لعقائد الأقوام

---

<sup>1</sup> - محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقّه الإسلامي - فقه المرأة، ص 44.

السابقين الباطلة لا معنى لها! لأنها تطالب بخلاف مقتضى طبيعة الإنسان! فعبادة الأصنام مثلاً- حسب الرأي السابق- يُفترض أنها مرحلة طبيعية مرت بها البشرية في طريق تعرفها على الله سبحانه، بينما يرفض القرآن الكريم هذا المنطق، ويعتبر عبادتهم للأصنام انحرافاً من أولئك الأقوام عن جادة التوحيد فيقول: (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً \* وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا \* وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوءَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا \* وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا)(نوح:21-24)، هذا في الألف الرابع قبل الميلاد، وعن إبراهيم(ع) يقول: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ \* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ \* قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاقِبِينَ \* قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ \* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ \* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ \* قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ \* أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ \* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِذَا رَبَّ الْعَالَمِينَ)(الشعراء:69-77)، فكيف يصحّ بعد ذلك أن نعتبر الوثنية جزءاً طبيعياً ضمن سياق رحلة التوحيد الطويلة؟! أن نذهب بعض الباحثين الغربيين في تحليله لظاهرة التدين إلى أبعد من ذلك، حين تخيل أنّ الإنسان إنّما تعلم تدبير أمور حياته من الحيوان! وأنّ نشوء الشعور الديني يرجع الفضل فيه إلى ذاك الشعور الغريزي بالخوف والفرح عند الحيوان من كل ما هو مجهول، فكان

ذلك سبباً دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التي تؤثر في حياته دون أن يتعرّف كنهها! ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التي لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أنّ هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه! والأغرب من ذلك أن يُرجع الفضل في تعليم هذا الإنسان المكرّم إلى الحيوان حتى على مستوى غرائزه!<sup>1</sup>

هذه طبعاً محاولات مادية لتفسير نشوء العقيدة والأديان بعيداً عن الطرح الديني السماوي الذي يصرّح بأنّ الإنسان خُلِق برعاية ربّانية خاصة، وفطر على الإيمان منذ بداية خلقه.

فالقول بأنّ الإنسان استمد صفاته من الحيوان يزري بقيمة الإنسان المكرّم الذي علّمه الله البيان، وفطره على الإيمان فكان - منذ كان - ناطقاً عاقلاً مؤمناً بالله الواحد الأحد، فأصل الإيمان موجود فيه وإنّما تدرّج في سلم المعرفة بعد أن أهبط من الجنة إلى الأرض بسبب المعصية ليبدأ صعود السلم من بدايته بعد أن كان في قمته.

إنّنا هنا يجب أن نفرق بين أحاسيس الخوف من المجهول والأخطار النابعة من تركيبية الكائن الغرائزية النفسية سواء كان هذا الكائن حيواناً أم إنساناً وبين حالات الخوف والرجاء التي تصيب الإنسان تحديداً نتيجة تركيبته الإيمانية الفطرية، فهو يحمل بين جنبيه جهازاً يمكنه من الاتصال بالملأ الأعلى إنّ هو أراد، وهو الروح التي

---

<sup>1</sup> - أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، ص 19.

بها أصبح إنساناً مُخاطباً ومُكلِّفاً ولم يكنْ كذلك من قبل، فهو لما كان مفطوراً على الإيمان بالله فلا بد أن يظهر ذلك على سلوكياته، إن لم يكنْ ذلك في أوقات الراحة والرخاء ففي أوقات الشدة والبلاء حيث لا ملجأ من الله إلا إليه، وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تؤكد هذا المعنى: (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِيحِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) (الروم:33)، (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ..) (الزمر:8)، (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (الزمر:49). إن تعلق القلب بقوة قاهرة قادرة على إنقاذه عند انعدام سبل النجاة لدليلٍ واضح على ما عُرس فيه من إيمان بهذه القوة مهما كانت تسميتها لديه، فليس المهم هنا تسميتها بل أثرها عليه، وهي أدنى المعرفة وإن كان المطلوب من الإنسان السعي لطلب المزيد من المعرفة بهذه القوة المهيمنة ليتسنى له مخاطبتها بما يليق بها من الأسماء (وَاللَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأعراف:180).

وهذا نفسه ما ذكر به الإمام الصادق (ع) ذلك الرجل حينما جاءه سائلاً: "يا ابن رسول الله دُلني على الله ما هو؟ فقد أكثر علي

المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كُسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يخلصك من ورطتك؟ فقال: نعم، قال الإمام الصادق (ع): فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجى، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث<sup>1</sup>. وهو عينه ما احتجت به الآية على المشركين في قوله تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت: 65) فهم في الشدة لا يجدون إلا الله فيلجأون إليه داعين مخلصين، ثم إذا كشف عنهم البلاء يشركون به.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأبد من التفريق بين الاعتقاد بالله الواحد الأحد وبين درجات ومستويات المعرفة به سبحانه المعتمدة أساساً على قدرات الإنسان العقلية وإمكانياته التجريدية حيث تكون معرفته بالله في مرحلة نضوجه العقلي في مراحلها اللاحقة أوسع وأعمق، وهذا لا يعني وجود نقص ما في عقيدته الفطرية الإيمانية في بدايتها ثم تكاملت بعد ذلك، وإثما النقص في القدرة على استيعابها كاملة نتيجة عدم التنفيع الكامل لطاقات العقل في البداية

<sup>1</sup> - الصدوق، التوحيد، ص 231.

بغض النظر عن الأسباب<sup>1</sup> ولذلك لما قام نفر من الناس هم الأنبياء والرسل باستغلال كامل طاقتهم العقلية سمت نفوسهم، فصاروا محال معرفة الله وأمناء وحيه وأهلاً لحمل رسالته إلى خلقه، فالعقل هو الوسيلة لمعرفة الله سبحانه منذ أن وُجد الإنسان على هذه الأرض وحتى يومنا هذا الذي شهد تطوراً مذهلاً في جانبه المادي صاحبه افتقارٌ شديداً في جانبه الروحي جعل الإنسان بعيداً عن السماء (وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) (سبأ:52)، رُوِيَ عن الصادق (ع) قوله: "إِنَّ الثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ الْعَقْلِ، إِنْ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ، خَضْرَاءَ نَضْرَةٍ، كَثِيرَةَ الشَّجَرِ ظَاهِرَةَ الْمَاءِ، وَإِنَّ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَرَّ بِهِ فَقَالَ: يَا رَبِّ ارْنِي ثَوَابَ عَبْدِكَ هَذَا، فَأَرَاهُ اللَّهَ ذَلِكَ، فَاسْتَقَلَهُ الْمَلِكُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ اصْحَبْهُ، فَأَتَاهُ الْمَلِكُ فِي صُورَةِ إِنْسِي فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ عَابِدٌ بَلَّغَنِي مَكَانَكَ وَعِبَادَتَكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ فَأَتَيْتُكَ لِأَعْبُدَ اللَّهَ مَعَكَ، فَكَانَ مَعَهُ يَوْمَهُ ذَلِكَ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: إِنْ مَكَانَكَ لَنْزِهِ وَمَا يَصْلِحُ إِلَّا لِلْعِبَادَةِ، فَقَالَ لَهُ الْعَابِدُ: إِنْ لِمَكَانِنَا هَذَا عَيْبًا، فَقَالَ لَهُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: لَيْسَ لِرَبِّنَا بَهِيمَةٌ فَلَوْ كَانَ لَهُ حِمَارٌ رَعَيْنَاهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِنَّ هَذَا الْحَشِيشَ يَضِيعُ! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْمَلِكِ: إِنَّمَا أُتِيْبَهُ

<sup>1</sup> - والحق أنّ الإنسان كان في بدايته أعرف بالسماء والإيمان منه بعد تطاول الزمان عليه، لأنه كان يعرف ربه بروحه وإيمانه معرفة مباشرة، لا عن طريق العقل والاستدلال، ولكنه بعدما ضعفت فيه الصلة الروحية واعتمد على العقل والتفكير صارت معرفته متدرجة ونامية بعدما كانت كشفاً متكاملًا.

على قدر عقله"<sup>1</sup>. إن نصيب كل فرد من المعرفة بالله هو بمقدار تثويره لدفائن عقله- وهذا ما جاءت من أجله الأنبياء والرسل- حتى يصل الإنسان بعد مشوار طويل من الكدح والعناء إلى مرحلة اليقين بربه (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)(الحجر:99).

وقد التبس الأمر على الأستاذ العقاد حين ساوى بين العقيدة وباقي العلوم والصناعات من حيث الابتداء، وفاته أن العقيدة في الإنسان فطرية بينما العلوم كسبية، يقول الله سبحانه: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل:78)، ولم يقل مثل ذلك في شأن العقيدة، بل قيل ما يفيد عكسه تماماً، في القرآن (فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)(الروم:30)، وعلى لسان الرسول(ص): (كل مولود يولد على الفطرة)<sup>2</sup>، وما الدعوة إلى النظر والتفكر في الآيات وفي الأنفس وتحصيل العلم إلا لترسيخ هذه الفطرة وتعميق الإيمان بالله سبحانه، فإن العلم والإيمان إذا اجتمعا في المرء رفعاه (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)(المجادلة:11).

<sup>1</sup>- الكليني، الكافي، ج1، ص12.

<sup>2</sup>- الصدوق، التوحيد، ص330؛ مالك، الموطأ، ج1، ص241.

ثم إن افتراض التدرج في العقيدة من التعدد إلى الوحدانية قائم على فرضية أن الإنسان بدأ حياته بلا عقيدة كما بدأها بلا علم ثم تعلم، وببطلان هذه الفرضية تسقط، بل - الأصح - تتقلب لتصبح البداية بالتوحيد ثم التدرج شيئاً فشيئاً نحو الشرك نتيجة لطول الأمد وقسوة القلوب، فتكون الحاجة حينئذ لإرسال الرسل والنبیین مذكّرين ومبشرين ومنذرين، والتذكير لا يكون إلا بشيء منسي سابق وجوده على لحظة التذكير.

والغريب أن يفتن إلى تلك الحقيقة بعض المؤرخين الغربيين، بينما تغيب عن أكثر الدارسين لتاريخ الديانات ممن قرأوا القرآن وآمنوا به، يقول عمانويل دي روجيه: "من المستحيل عملياً أن ينبثق الإيمان بعدة آلهة وعبادتها إلا من خلال فساد ديانة أكثر نقاء.."<sup>1</sup>

### أولاً - الإنسان خليفة

إنّ الجهل بالحقائق المتعلقة بخلق الإنسان الأول جعل الباب مفتوحاً على مصراعيه للباحثين للإدلاء بدلوهم وطرح نظرياتهم التي تفسر كيفية ظهور هذا الكائن العاقل وكيفية تطوره إلى ما هو عليه الآن، فمن جهة لم يفرّق الباحثون الماديون بين مرحلة البشرية التي

---

<sup>1</sup> - إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية - الوحدانية والتعدد، ص294.

عاشها هذا الكائن والمرحلة الإنسانية التي أعقبتها، ولم ينظروا إلى هذه النقطة النوعية إلا في سياق ما تطرحه نظرية التطور (النشوء والارتقاء)، ومن جهة أخرى يرى أكثر الباحثين المسلمين أنّ خلق الإنسان تمّ بنفخ الروح في قلبه الطيني المعدّ مسبقاً لهذا الغرض حيث لم يسبق لهذا الكائن - حسب رأيهم - وجودٌ (بيولوجي - فيزيولوجي) حيّ.

بينما يقرّر القرآن أنّ المشروع الإنساني على الأرض بدأ بقرار ربّاني: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة:30)، ويُستفاد من ردّ الملائكة: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) (البقرة:30) الإشارة إلى وجود بشري سابق<sup>1</sup> وأوكلت مهمة تنفيذ هذا القرار إلى سادة الملائكة المدبّرين، الذين يتلقون الأمر الإلهي لتنفيذه فهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحریم:6)، إذ لا يُتصوّر أنّ الله العليّ القدير الذي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى:11)، أن يباشر هو سبحانه وتعالى التنفيذ بنفسه، فهو (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس:82).

فكانت مهمة سادة الملائكة تنفيذ هذا المشروع والعمل على إنجازه، ولا يزالون هم كذلك دون كلل أو فتور منذ ذلك الحين، ومنذ

<sup>1</sup> انظر بحث: الخلق الأول - كما بدأكم تعودون، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

أن خلق الإنسان الأول (آدم) الذي نُفخ فيه من الروح، أودع الفطرة.. (فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) (الروم:30)، وهي فطرة التوحيد كما تؤكد الأحاديث الواردة في معنى الفطرة، قال رسول الله (ص): (كل مولود يولد على الفطرة) يعني على المعرفة بأن الله عزّ وجلّ خالقه، فذلك قوله: (وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (لقمان:25)<sup>1</sup> وسُئِلَ الإمام الصادق (ع) عن قول الله عز وجل: "فطرة الله التي فطر الناس عليها) قال: فطرهم جميعاً على التوحيد"<sup>2</sup>، كما يذكر ابن كثير في تفسيره عن رسول الله (ص) قوله: "يقول الله عزّ وجلّ إني خلقت عبادي حنفاء"<sup>3</sup> فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم"<sup>4</sup>. وقد أورد الطبراني هذا الحديث "أن رسول الله(ص) قال يوماً: ألا أحدثكم ما حدثني الله عزّ وجلّ به في الكتاب؟ إن الله عزّ وجلّ خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين..."<sup>5</sup>.

وقد تضمن هذا المشروع الأمر للملائكة بالسجود لهذا الإنسان، وجُعِلوا في خدمته لتعهدّه ورعايته وتعليمه، فأدم هو الموحد الأول

<sup>1</sup> - الصدوق، التوحيد، ص331.

<sup>2</sup> - الصدوق، التوحيد، ص329.

<sup>3</sup> - الحنف: هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة. والحنيف هو المائل إلى ذلك. الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص260.

<sup>4</sup> - ابن كثير، التفسير، ج4، ص551.

<sup>5</sup> - الطبراني، المعجم الكبير، ج17، ص363.

على وجه الأرض ابتداء مسيرة التوحيد متسلحاً بالفطرة من جهة، وبالوعد الإلهي له بالتسديد - بعد أن أهبط - من جهة أخرى: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)(البقرة:38).

كانت هذه الكلمات بمثابة إعلان التوبة من الله على آدم الإنسان الأول، حيث اجتباها وهداه إلى الصراط المستقيم ليبدأ مشوار الحياة الإنسانية الصاعد (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)(الانشقاق:6).. بعد أن استوعب الدرس الأول في مدرسة الحياة عارفاً عدوه.. متعرفاً على نفسه (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) (طه:123).

هكذا بدأت حياة الإنسان على هذه الأرض بالتوحيد لله الواحد الأحد.. بدأت بالأمة الفرد (آدم)، واستمرت وهي في طور انطلاقها مدة مديدة من الزمن يرث الأبناء عن الآباء والأحفاد عن الأجداد عقيدة التوحيد حتى تطوّرت لتصبح الأمة الناس بعد أن برزت معالمها في بعدها الاجتماعي والجغرافي حين تحولت من حياة الكهوف والنقاط الثمر، إلى استئناس الحيوانات وتدجينها بالرعي، ومن الرعي إلى حياة الاستقرار والزراعة لتتطلق منها في بناء الحضارة الإنسانية، وكانت الأمة خلال هذه المدة الطويلة أمة واحدة

أي على عقيدة واحدة (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً - مجتمعين على التوحيد بتعليم وتعهد رباني - فَاخْتَلَفُوا - بعد ما ضعفت فيهم عقيدة التوحيد - وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)(يونس:19)، فالأمة هنا بمعنى الدين<sup>1</sup> (أي التجمع على وجهة واحدة (فكرية/اعتقادية/سلوكية)، وعكسها الاختلاف في الاتجاهات والتفرق كما قالته الآية)، وهو نفس المعنى في قوله تعالى: (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)(الزخرف:22)، ويؤكد هذا المعنى سياق الآيات في سورة يونس، ففي الآية السابقة يقول تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)(يونس:18)، وفي الآيات اللاحقة يورد مطالبتهم بنزول آية على النبي(ص) من ربه مكابرةً وعناداً، فيذكرهم الله سبحانه بما عُرس في فطرتهم من بذرة الإيمان التي تظهر جلية حين الشدة حيث لا منجى إلا الله (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

<sup>1</sup> "وأما الهمزة والميم فأصلٌ واحدٌ، يتفرع منه أربع أبواب، وهي الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين"، قال الخليل: الأمة: الدين، قال الله تعالى: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ)(الزخرف:22). وحكى أبو زيد: لا أمة له، أي لا دين له. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج1، ص54، 56.

وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحْبِطَ بِهِمْ دَعَاؤُا اللَّهِ  
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ  
الشَّاكِرِينَ(يونس:22).

يقول أحد المفسرين للآية (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً): "...،  
ومقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقاً أمة واحدة  
كونهم على دين واحد وهو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين  
موحد ومشرك"<sup>1</sup>، فقد اقتضت مشيئة الله أن يترك الخيار للإنسان  
(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (الكهف:29)، وما كان الله  
ليكرهه على التوحيد (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا  
يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)(هود:118) فذلك مقتضى الحرية التي أعطيت  
للأدمي، ولكن اقتضت رحمته ووعده من جهة أخرى تدخله سبحانه  
لتعليم الإنسان وإرجاعه كلما انحرفت عقيدة التوحيد أو خبت، كما  
وعد سبحانه بقوله: (فَلَنَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فإِذَا يَأْتِيَكُمُ مِنِّي هُدًى  
فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)(البقرة:38).

<sup>1</sup> - الطباطبائي، تفسير الميزان، ج11، ص32.

## ثانياً - الملائكة رُسُلًا

واستمر المشروع الإلهي في توجيه الإنسان وهدايته برعاية ربانية وبأفضل الطرق المناسبة له واختير لهذا الإنسان من الأساليب الكثيرة التي تضمن وصول الهداية إليه وإقامة الحجة عليه حسب مستواه المعرفي، من هذه الأساليب أن بعث الله إليه غراباً يبحث في الأرض ليريّه كيف يوارى سواة أخيه المقتول، ومنها أن أرسل إليه ملائكة (هاروت وماروت) يعلمانه (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) (البقرة:102)، وقد كان للملائكة الدور الأكبر في هداية الإنسان في مراحلهِ الأولى، فقد اعتاد الناس فكرة نزول الملائكة متمثلين بشراً للتعليم، لدرجة استنكارهم أن يأتي إليهم رسولٌ من البشر (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) (المؤمنون:24)، هكذا كان قول الملائكة الذين كفروا من قوم نوح(ع)، ومن بعدهم قوم عاد وثمود (إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، فماذا كان ردّهم؟ قالوا لو شاء ربنا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (فصلت:14)، إذ أنّهم لا يتصورون أن يكون الرسول بشراً مثلهم، ولعلّهم كانوا يعلمون من أعمال الملائكة الخارقة ما دعاهم أن يطالبوا الرسل من البشر بمثل تلك الأعمال (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا\* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ  
فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا\* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا  
كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِئِهِ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَالًا\* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ  
تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَاهُ قُلْ  
سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا(الإسراء:90-93).

وبتتابع مجيء الرسل من البشر ونقلص الدور المباشر للملائكة  
واقْتصار حضورهم وهم على صورة البشر مع بعض الرسل لأداء  
مهام معينة، كالحال في ضيف إبراهيم المكرمين الذين بشّروه  
بإسحاق (وَبَشَّرْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ\* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا  
قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ\* قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ  
عَلِيمٍ)(الحجر:51-53)، وذهابهم بعد ذلك إلى لوط (ع) لإنزال  
العذاب بقومه المسرفين (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ  
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ  
مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ  
بِقَرِيبٍ)(هود:81)، وكذلك تمثل الملك للصدّيقة مريم بشراً (فَاتَّخَذَتْ  
مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)  
(مريم:17)، مع هذا الانسحاب التدريجي بدأت تخفت صورة الملائكة  
كحلقة اتصال بين السماء والأرض وكمعلمين لتحلّ محلها صورة  
الرسول البشري، فكان سقف مطالبة الأقسام اللاحقين من رسلهم أن

يكون معهم ملائكة كعلامة على صدقهم، فهذا فرعون موسى ينادي في قومه: (فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) (الزخرف:53)، ثم بعد ذلك لينخفض هذا السقف إلى المطالبة ولو بملك واحد ليكون مع الرسول محمد (ص): (وَقَالُوا مَالٌ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا) (الفرقان:7)، (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (هود:12).

وهكذا تدريجياً أصبحت حلقة الاتصال مقتصرة على الجنس البشري الإنساني كالأنبياء والرسل والمؤمنين الصالحين والقادرين على تمثيل الملائكة الأعلى واستيعاب مهام الاستخلاف في الأرض، بعد أن ارتقت قدرات الإنسان التفكيرية وقابلياته التجريدية فأصبح مهياً وقادراً - إن شاء - على حمل آخر الرسائل السماوية.

### أ- طرق اتصال الملائكة بالبشر

قد لا نحيط علماً بأساليب اتصال الملائكة بالإنسان، ولكن يمكن الإشارة إلى ثلاثة منها، هي:

1- الاتصال المتمثل، وذلك حينما تكون الملائكة على هيئة البشر عند التواصل مع الإنسان (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) (مريم: 17)،

فيكون التواصل بين الطرفين كأى تواصل بين اثنين من الناس تعليماً وحواراً، وقد كان اتصال الملائكة أساساً مع الأنبياء (ع) باعتبارهم المعلمين والمربين للناس،<sup>1</sup> ولكن ذلك لا يمنع مخاطبة الملائكة غير الأنبياء ومحاورتهم كما كان الحال مع الملكين ببابل هاروت وماروت، وكما حدث مع مريم الصديقة ومع سارة زوج إبراهيم (ع) (وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ\* قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ\* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) (هود: 71-73).

2- الاتصال عن طريق الوحي، وذلك حينما يكون الملك على هيئته الحقيقية، ويتم الاتصال في هذه الحالة عن طريق الدخول على قلب النبي (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنَّكَ قَدْ كُنْتَ غَافِلًا عَنِ الْوَحْيِ وَإِنَّهُ لَنَزْلٌ مُّبِينٌ\* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ\* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) (الشعراء: 192-194)، وقد كان يصاحب هذا النوع من الاتصال أعراض واضحة يلحظها المسلمون على الرسول (ص)، وهي الحالة التي عُرفت بالغشبية التي تصيب النبي (ص) حين نزول الوحي عليه فيتصد لها جبينه

<sup>1</sup> - يقول الإمام علي (ع) في خطبة له تُسمى القاصعة عن الرسول (ص): "ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله- من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره" الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج2، ص157. وهذا ما عناه (ص) بقوله: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، فلا بد أن يكون هذا التأديب قد تم بواسطة هذا الملك.

عرفاً.

ونعتقد أنّ هذا النوع من الاتصال بدأ مع نوح (ع) لقوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالنَّاسِبَاتِ وَعِيسَى وَيُوسُفَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) (النساء: 163)، ولهذا كانت حجة قومه في الردّ عليه أنّهم لم يسمعوا بهذا النوع من الاتصال من قبل فقالوا: (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) (المؤمنون: 24)، وغنيّ عن الذكر أنّ طريقة الاتصال بالوحي لم تُنه طريقة الاتصال المتمثّل بين الملائكة والأنبياء والتي ظلت باقية حتى آخرهم محمد(ص)<sup>1</sup>.

3- الاتصال عن طريق الإلهام وهو يشمل غير الأنبياء أيضاً من المؤهلين لتلقيه، وهو حالة نفسية مفاجئة تأخذ بمشاعر وأحاسيس قلب المُلهَم، والحقيقة إنّهُ سيلٌ روحاني يُوقف المجرى العادي للرأي والشعور ويُغيّر من الاتجاه العادي للتأمّل والتفكّر، ويكشف عن انعدام التناسب بين ما كان المُلهَم يُفكّر فيه وما انكشف له فجأةً. والمُلهَم كلّما قرُب من الله سبحانه وتعالى كان إلهامه كشفاً من الكشوف العرفانية، وقد قيل في الفرق بينه وبين إلقاء

<sup>1</sup> - رُوي أنّ النبي(ص) أتاه جبرئيل في صورة دحية الكلبي غير مرة.

الشيطان ووسوسته: أنّ ما أثمر إقبالا على الله وإنابة إليه وذكرأ له وهمة صاعدةً إليه، وأورث أنسا ونورا في القلب وانشراحا في الصدر وسكينة وطمأنينة فهو من الملك، وما أثمر وأورث ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان<sup>1</sup>.

## ب- أدوار أخرى للملائكة

لقد كان ولا يزال جُلّ دور الملائكة يتمثل في الوقوف إلى جانب الإنسان ومساعدته في ترسم مسيرته الإيمانية نحو الله سبحانه، فهم يلعبون دور قوات الدعم اللوجستي التربوي في معركة الإنسان مع الشيطان الرجيم وجنوده من الجن والإنس على صعيد خط المواجهة الأول (النفس)، وأيضا على صعيد خط المواجهة الثاني (العدو الخارجي)، فربما يتطلب الأمر التدخل أحيانا بشكل غير مباشر لترجيح كفة المؤمنين على أعدائهم في المنعطفات المصيرية، لذا لم يقتصر دور الملائكة على تعليم الإنسان وتربيته فقط بل شمل جوانب أخرى منها:

1- حفظ الإنسان من كثير من الأخطار المودية بحياته إلى أن يحين أجله، قال تعالى: (لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (الرعد:11)، وقال أيضا: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

<sup>1</sup> - ابن قيم الجوزية، الروح، ص346.

وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا  
وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ(الأنعام:61).

2- تثبيت المؤمنين في ساحات القتال، وشدّ أزرهم ضد أعدائهم كما حدث في معركة بدر المصيرية، فقبل المعركة طمأن الله سبحانه المؤمنين بقوله: (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ)(آل عمران: 124)، ووعدهم بالمزيد من المدد إن هم ثبتوا في المواجهة (بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) (آل عمران: 125)، وهكذا تمت تعبئة المؤمنين نفسياً للمعركة قبل وقوعها ليدخلوها بأقدام ثابتة وقلوب مطمئنة بنصر الله، واستمر الدعم بعد ذلك حين تقابل الجيشان ورأى المسلمون أنّ المشركين يفوقونهم عدداً وعدة فاستغاثوا ربهم (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)(الأنفال:9)، ليتجاوز دور الملائكة بعد ذلك حد الدعم المعنوي إلى المشاركة غير المباشرة في القتال عن طريق تسديد ضربات المؤمنين لخصيب الأعداء في مقاتلهم (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)(الأنفال:12)، ولعلّ هذا ما عنته الآية (17) من نفس

السورة (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(الأنفال:17)، وكان لا بدّ من هذا الدعم القوي لحسم المعركة لصالح المؤمنين لأهداف استراتيجية عبّر عنها الرسول(ص) في ذلك اليوم حين استقبل القبلة ودعا ربه قائلاً: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض)<sup>1</sup>.

3- إنزال العذاب بالمستحقين له من الأقوام الظالمين بعد تنجية المؤمنين كما هو واضح فيما حدث لقوم لوط(ع): (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ \* قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِنَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ \* وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَ وَأَهْلَكَ إِنَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ \* إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)(العنكبوت:31-34).

<sup>1</sup> - الطبري، التاريخ، ج2، ص149.

4- توقي الأنفس، قال تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (السجدة:11)، وقال أيضا: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ) (الأنعام:61).

5- مراقبة الإنسان في أعماله وكتابتها له أو عليه ضمن عملية متابعة دقيقة ولسيقة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا نُؤَسِّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ \* إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ \* مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (ق:16-18)، (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (الزخرف:80).

### ثالثاً - دور الأنبياء والرسل

بعث الله سبحانه الأنبياء والرسل للقيام بمهمة التذكير وإرجاع الناس إلى خط التوحيد كلما حادوا عنه (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (النحل:36). فجاء آدم الرسول.. وشيث.. وإدريس.. ونوح (عليهم السلام)، وآخرون ذكرهم القرآن الكريم والكثير منهم لم يذكرهم (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) (غافر:78)، وتذكر الروايات أن عدد الأنبياء يصل إلى مائة وأربعة وعشرين ألف نبي،

وقد كان ابتداء بعثهم في مرحلة ما بعد الأمة الواحدة حين اجتالت الشياطين بني آدم وحرفتهم عن التوحيد، تجد ذلك واضحا جلياً في كلام للإمام علي(ع) في خطبته الأولى في نهج البلاغة يتحدث فيها عن خلق آدم وبعث الرسل فيقول: "... ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، وآمن فيها محلته، وحذرته إبليس وعداوته، فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام، ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجدل وجلا، وبالاغترار ندماً. ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقاه كلمة رحمته، ووعده المرء إلى جنته، وأهبطه إلى دار البلية وتنازل الذرية.

وإصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول... ..<sup>1</sup>

فالناس ظلوا ردهاً من الزمن على الإيمان بالتوحيد أمة واحدة إلى أن بدل أكثر الخلق عهد الله إليهم، وأشركوا به فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فالتوحيد هو القاعدة والشرك والوثنية هما

<sup>1</sup> - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج1، ص22، 23.

الاستثناء الذي استدعى بعث الأنبياء والرسل. (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)(البقرة:213)، يقول السيد قطب في تفسيره (في ضلال القرآن): "فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هداه، وما من شك أنه علم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى" ويقول أيضاً: "... وأن الذي يقرره الله - سبحانه - أن آدم وهو أول البشر(!) عرف حقيقة التوحيد كاملة، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتنثية، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده. وأنه عرف بنيه بهذه العقيدة، فكانت هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً، وإلا التوحيد عقيدة، وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد.. ربما إلى التنثية وربما إلى التعدد.. ودانت لشتى الأرباب الزائفة"<sup>1</sup>، ولهذا كانت مهمة الأنبياء والرسل قائمة أساساً على الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، وكانت أولى كلماتهم إلى أقوامهم هي: (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، يقول الله سبحانه عن نوح(ع): (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)(الأعراف:59)، وعن هود(ع): (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا

<sup>1</sup> - سيد قطب، في ضلال القرآن، سورة هود.

قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)(الأعراف:65)،  
وعن صالح(ع): (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا  
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا  
ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)(هود:61)، وعن شعيب(ع):  
(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
وَلَا تَنفُسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ  
عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)(هود:84)، وعن جميع الرسل: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ  
قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا  
فَاعْبُدُونِ)(الأنبياء:25).

فالإنسان إذن كان، ولا يزال، مشروعاً ابتداءً بتدخل رباني  
مقصود، فُطر على التوحيد وزُوِّد بطاقة العقل الجبارة ووُظف  
لرعايته وهدايته الملائكة والأنبياء والرسل ينيرون له الطريق إلى  
معرفة الله سبحانه وعبادته، حماية له من تأثيرات مشروع الإضلال  
الشيطاني الذي استطاع أن يضل جيلاً كثيراً من الناس، ولكنه ظلّ  
عاجزاً عن إفشال المشروع الرباني برمته، وظلّ خط التوحيد  
متواصلاً في هذه الأمة منذ آدم وحتى يومنا هذا.

## الفصل الثاني

### موحدون عبر التاريخ

إنّ التوحيد الذي بزغ منذ بداية يوم الإنسانية سيبقى يُرسل أشعته حتى نهاية ذلك اليوم وإنّ حجبته بعضُ سحبٍ من الشرك خفيفةٍ زمنًا ما ذهبَتْ ببعض نوره.. أو كثيفةٍ في زمن آخر حجبت نوره عن كثير من النفوس إلا أنه ظلّ زاهرًا في نفوس قوم آخرين، فالأرض لم يأت عليها زمان قط خلت فيه من حجةٍ على الناس متمثلةٍ في أشخاص موحدّين يمشون على الأرض كان أولهم آدم وليس آخرهم خاتم النبيين محمد (ص) وما بينهما الكثير من الرسل والأنبياء نعرف البعض منهم ولا نعرف أكثرهم (رُسلًا مُبشِّرينَ ومُنذرينَ لِنَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)(النساء:165).

يقول الإمام علي(ع): "لم يُخلِ اللهُ سبحانه خلقه من نبيٍّ مرسل، أو كتابٍ مُنزل، أو حُجَّةٍ لازمة، أو محجةٍ قائمة.. رسلٌ لا تُقصرُ بهم قلةٌ عددهم، ولا كثرةُ المكذِبين لهم، من سابقِ سُمِّي له

مَنْ بعده، أو غابر عرفه مَنْ قبله.. على ذلك نَسَلت القرون، ومضت  
الدهور، وسَلّفت الآباء، وخَلّفت الأبناء<sup>1</sup>.

فلا بد من وجود نماذج مؤمنة وموحّدة طوال التاريخ الإنساني،  
يحتج الله سبحانه بهم على خلقه لتكون له الحجة البالغة، ولا يمكن أن  
يخلو زمانٌ من هؤلاء المؤمنين قَلّوا أو كثروا، ظاهرين كانوا  
ومعروفين أم مغيبين ومقهورين إلا أن وجودهم يمثل استمراراً لخط  
التوحيد الذي قد يضيق ليقصر على أفراد معينين يمثلون الأمة  
الموحّدة في زمن ما، وقد يتسع في زمان آخر ليشمل الأمة كلها  
ولكنه لا ينقطع أبداً.

ولسائل أن يسأل: من أين كانت انطلاقة عقيدة التوحيد؟.. أين  
هي البقعة الجغرافية التي منها انتشرت تلك العقيدة إلى العالم؟

وللإجابة عن هذا السؤال المهم، علينا الرجوع إلى الوراثة  
كثيراً حيث نقطة البداية، حيث الجنة الأرضية التي أسكنها آدمُ  
وزوجُه، ثم أهبط منها آدم بعد معصيته ليستقرّ بالقرب منها رغبة في  
الأوبة إلى الله عزّ وجلّ وطلباً للمغفرة، فمن هذه المنطقة تحديداً كانت  
البداية، ولكن الجهل بحقائق التاريخ والجغرافيا سواء نجم ذلك عن  
تقصير أو قصور في الفهم أو تحريف للحقائق بقصد أو بغير قصد  
ساهم في رسم الصورة غير الصحيحة لما جرى عبر التاريخ منذ آدم

<sup>1</sup> - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج1، ص24.

الإنسان الأول وحتى يومنا هذا، وما دعوة القرآن الكريم لنا للسير في الأرض للنظر فيما آل إليه أمرُ السابقين من المكذبين والمجرمين إلا لإعادة رسم الصورة الصحيحة لما جرى في الحقب الماضية واستخلاص العبرة منها (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)(الأنعام:11)، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)(النمل:69)، بل يذهب التوجيه الإلهي لنا أبعد من ذلك حين يطالبنا بالسير في الأرض لمعرفة كيف بدأ الخلق، وهذا ضمن الوُسع وإلا لما كُلفنا به (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(العنكبوت:20).

فالبداية إذا كانت من (أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ)(آل عمران: 96)، من هذه الأرض المقدسة التي باركها الله سبحانه، أرض شبه الجزيرة العربية التي انطلق منها الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين وداعين إلى عبادة الله الواحد الأحد، ومنها حمل الإنسان العربي عقيدة التوحيد إلى جميع أنحاء الوطن العربي الواسع منذ آلاف السنين، لا كما صورّه أعداء هذه الأمة من أنّ العرب كانوا مجموعة من البدو الرحّل سكنوا الجزيرة العربية قبل البعثة النبويّة، وكانوا جهلة ووثنيين يعبدون الأصنام، متناسين وجودهم قبل ذلك وجغرافيتهم الواسعة التي شملت العراق

وسوريا ووادي النيل، وتاريخهم الموغل في القدم الذي مثله السريانيون (كالسومريين والبابليين)، والفينيقيون.

## أولاً - الحنفاء

لقد كان العرب في شبه الجزيرة العربية يمثلون مركز الأمة العربية الواسعة، وكانوا قبل البعثة النبوية يدينون بالحنيفية الإبراهيمية، فقد كانوا يعظمون البيت الحرام ويحجون إليه من كل جهة، وذلك قبل أن يتولى أمر البيت عمرو بن لحي كبير خزاعة يومئذ، فكان هو أول من وضع الأصنام على الكعبة ودعا الناس إلى عبادتها، وأول صنم وضعه عليها هو "هبل" الذي حمله معه من الشام إلى مكة ووضعها عليها، ثم أتبعه بغيره حتى كثرت وشاعت عبادتها بينهم.

وقد أنكر (شحنة بن خلف الجرهمي) عليه فعله هذا فخاطبه

قائلاً:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت ربّ واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا

لتعرفن بأنّ الله في مهل سيصطفى دونكم للبيت حجاباً<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - المسعودي، مروج الذهب، ص 192.

فرغم وجود عبادة الأصنام في مكة إلا أنّها لم تخلُ من  
الموحّدين الذين آمنوا بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له، معلّنين  
رفضهم الصريح لعبادتها، داعين لعبادة التوحيد في أشعارهم  
وخطبهم، كما هو واضح من قول "قس بن ساعدة الإيادي":

**كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد**

إنّ وجود "كلا" الرادعة، و"بل" المضربة، تُبيّن أنّ الرجل لا أنّه  
كان يُقرّ ويُخبر بعقيدة التوحيد في أدقّ تفاصيلها عن الإله الواحد  
العليّ فحسب، وإمّا هو حينها يرفض الانحراف المتاخم لزمانه  
ويدعو للإضراب عن مظاهر الشرك المنتشرة.

"كان قسّ بن ساعدة يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث، ويدعو  
العرب إلى نبذ العُكوف على الأوثان ويُرشدهم إلى عبادة الخالق.  
ومن حُطبه خطبته تلك التي خطبها في سوق عكاظ وهي: أيها الناس  
اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت،  
ليلّ داج ونهارٌ ساج وسماءٌ ذات أبراج، ونجوم تزهّر، وبحار تترخّر  
وجبال مُرساة، وأرض مُدحاة، وأنهار مُجراة، إنّ في السماء لخبرا  
وإن في الأرض لعبيرا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون أرَضُوا  
فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟ يُقسم قسٌ بالله قسماً لا إثم فيه إنّ الله ديناً هو

أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكر<sup>1</sup>.

وقد روي أنّ النبيّ (ص) سمعه في عكاظ فأثنى عليه، وقال فيه: "رحم الله قسّاً، إني لأرجو يوم القيامة أن يُبعث أمّة وحده"<sup>2</sup>.

وكذلك كان الشاعر العربي المعروف زهير بن أبي سلمى ممن عاصر هذه المرحلة التاريخية ومات قبل البعثة بسنة، "وكان سيداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع مُتديناً مؤمناً بالبعث والحساب كما يظهر من قوله:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يُعجل فيُنقم<sup>3</sup>

وفي مروج الذهب ذكر المسعودي في هذا الصدد يقول:

"وقد كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم في الفترة جماعة من أهل التوحيد، ممن يُقر بالبعث، وقد اختلف الناس فيهم: فمن الناس من رأى أنهم أنبياء، ومنهم من رأى غير ذلك"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج2، ص238، 239.

<sup>2</sup> - أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص20.

<sup>3</sup> - أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ص250.

<sup>4</sup> - المسعودي، مروج الذهب، ص21.

والأصح أنهم الحنفاء أي بقايا تابعي دين النبي إبراهيم (ع) الذي عاش في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وهم جماعة من العرب لم يكونوا على دين قومهم الوثني، وكذلك لم يكونوا يهودا ولا نصارى وإنما اعتقدوا بوحداية الله على غرار ما وضحته البعثة المحمدية، وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض طوال القرون الماضية وإن كانت قليلة في قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)(هود:116).

وخط التوحيد الذي لم ينقطع يثبتته - بالإضافة إلى القرآن الكريم - الصحيح مما في كتب الديانات الأخرى: "يقول الكتاب المقدس إن البشر ارتدّوا عن الله الحي وعبدوا آلهة متعددة، مما حدا بالأنبياء إلى بذل المحاولات لإرجاع الناس إلى عبادة الإله الواحد. أما العلماء الملحدون فزعموا أن الإنسان منذ البداية يعتقد بتعدد الآلهة. وبقيت هذه النظرية سائدة لدى الكثيرين إلى أن دحضها الدكتور س. هربرت. وهو أحد أعلام الحفريات وأستاذ الدراسات

الآشورية في جامعة أكسفورد فقد قال هذا العلامة إن عقيدة الوجدانية في الديانات "السامية" (!) والسومرية قد سبقت العقيدة بتعدد الآلهة"<sup>1</sup>.

## ثانياً - المندائيون الصابئة

ولو توغلنا أكثر في القدم قبل آلاف السنين لالتقينا بإخوان لنا في العقيدة لا تختلف عقيدتهم التوحيدية وحتى ممارساتهم العبادية كثيرا عما نحن عليه الآن، هؤلاء الأخوة هم المندائيون الذين سكنوا في شبه جزيرة العرب، يقول الدكتور أحمد داوود: "إنّ جنوب غامد من جبال السراة هو الموطن الأصلي لأولئك المندائيين، ممّا جعلهم يتوجهون في صلواتهم إلى الشمال العالي حيث بيت المقدس في المغارة المقدسة منبع الأنهار التي تروي جنة عدن ومن بينها الفرات. ثم إنهم اضطروا في حقب من حقب التاريخ إلى النزوح شرقاً عند ضفاف الفرات (الثرات) ورنيا عند حرّان الأرامية شرق غامد (وليست حرّان على الفرات في الشمال السوري)، ومن هناك تابعوا الرحيل شرقاً إلى جنوب العراق الحالي حيث ما زالوا إلى اليوم"<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - موقع النور : <http://www.al-nour.com/bible/torah/torah8.htm>

<sup>2</sup> - أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم - 1 "المركز"، ص 149.

وقد دُعي هؤلاء المندائيون بالصابئة<sup>1</sup> لاعتمادهم التعميد وهو التطهير والاختسال بالماء في الكثير من طقوسهم العبادية، وهو أهم طقس ديني عندهم، وقد خلط الكثير من الباحثين بينهم وبين الحرانيين السوريين عبدة النجوم والكواكب الذين ادعوا أنهم من الصابئة زمن المأمون حفاظاً على حياتهم، وخالصة القصة كما ذكرها ابن النديم في فهرسته (أن المأمون في طريقه إلى بلاد الروم، اجتاز ديار مضر، فاستقبله على الطريق عدة طوائف ومنهم طائفة ذوو لمم كثرة ويلبسون الأقبية، فأنكر المأمون زيهم وسألهم: ألكم كتاب أو نبي؟ فمجمجوا في القول، فقال لهم: إن دماءكم حلال، لا ذمة لكم، فقالوا: نحن نوّدي الجزية، فقال: إنما تُؤخذ الجزية من أهل الكتاب وأنتم لا كتاب لكم فاخhtarوا إما أن تنتحلوا دين الإسلام أو ديناً من الأديان المذكورة في كتاب الله أو أقتلكم حين أعود. فأسلم كثيرٌ منهم وتصرّ بعضهم خوفاً، وبقي البعض على معتقده فاقترح شيخ من أهل حران عليهم أن إذا رجع المأمون قولوا له نحن الصابئون، فهذا اسم دين قد ذكره الله في القرآن فانتحلوه فتتجون به، ففعلوا)<sup>2</sup>. فهم ادعوا أنّهم صابئون لما عرفوا أنّ القرآن ذكرهم وعدّهم من أصحاب الأديان،

<sup>1</sup> - ومن الأسماء التي أصقت بهم "الصابئة" وهي من الكلمات العربية القديمة "صبغ" = صبغ، تعمّد بالماء، اغتسل، تطهر، وهي بالمندائية التي تحذف العين لفظاً وكتابة "صبا" لأن التعميد أو التطهير بمياه الرب الحي "حيا" في المغارة المقدسة هي من طقوسهم الأساسية ويدعونها "يردن" أو "أردن" جمع يردا = "أورديا" ماء التطهير. أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم - 1 المركز، ص 149.

<sup>2</sup> - ابن النديم البغدادي، الفهرست، ص 385.

وقرنهم بأصحاب الديانات الثلاث وذلك في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)(المائدة:69).

هؤلاء هم الذين قال لهم المأمون حين ترددوا في جوابه: (فأنتم إذا الزنادقة، عبدة الأوثان)، أما المندائيون فيقول أحد شيوخهم في تعليقه على كتاب (تاريخ الصابئة المندائيين)، وهو الشيخ ستار جبار حلو يقول عن الصابئة: " ولا علاقة لهم بالكواكب والنجوم وإنما أخذ النجم القطبي كدلالة على اتجاه الشمال حيث الجنة وعرش الخالق جلّ شأنه ومسكن الملائكة الصالحين في الشمال"،<sup>1</sup> كما ذكر أن أول أنبيائهم آدم عليه السلام وأن كتابهم المقدس (كنزاً رباً) هي صحف آدم (ع).

### أ- عقيدتهم

عقيدتهم توحيدية خالصة لا غبار عليها، فهم يؤمنون بالله الواحد الأحد وينزهونه بأسمائه الحسنى، يظهر ذلك جلياً لمن يقرأ كتابهم المقدس (الكنزاً رباً) حيث يقول في افتتاحيته:

"سبحاتك ربّي العظيم، أسبحك ربي بقلب طاهر ربّ العوالم كلّها مسيحٌ ومباركٌ ومعظمٌ ذو الوقار والجلال. الله الربّ العليّ سبحانه

<sup>1</sup> - محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص17.

ملك النور السامي. ذو الحَوْل الشامل، الذي لا حدود لقدرته. النور البهّي، والضياء الساطع الذي لا ينضب. الرؤوفُ التواب، الغفور الرحيم. مَخْصَّ كلِّ المؤمنين وناصر كلِّ الطيبين. العزيزُ الحكيم، العليم البصير العارفُ الذي على كل شيء قدير. ربُّ عوالم النور جميعها، العليا والوسطى والسفلى. ذو السيماء العظيم الموقر الذي لا يرى ولا يُحدّ. لا شريك له بملكه ولا كفاء له بسلطانه. من يتكل عليه لا يُخذل، ومن يسبّح اسمه بالحق لا يخيب، ومن يتوكل عليه لا يُذلّ. ربّ الملائكة جميعاً، لا وجود بدونه وما من شيء لولاه، أزليٌّ ليس له بداية، وأبديٌّ ليس له نهاية"<sup>1</sup>

### ب - طقوسهم العبادية

أمّا عباداتهم فهي شديدة الشبه بالعبادات في الشريعة المحمدية، لا تختلف عنها إلا في بعض تفاصيلها الصغيرة بحكم اختلاف الزمان، الأمر الذي يعني أنّها تعرف من معين واحد، وأنّها تعاليم ربّانية تُضخ من المركز عبر الملائكة فالأنبياء ومنهم إلى أقوامهم، فالمندائيون يُرجعونها إلى صحف آدم وشيث وإدريس والتي وُجدت قبل أكثر من 4 آلاف سنة قبل الميلاد. ومن هذه الطقوس العبادية:

<sup>1</sup> - محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص 231.



## 1- الطهارة

"لا تصح العبادات عند الصابئة المندائيين بدون طهارة (رشامة)، والطهارة فرض على كل صابئي وصابئية. فالجنابة مبطله للعبادات، والغسل يكون بالماء الجاري غير المنقطع عن مجراه الطبيعي. ويكون ذلك بالارتماس ثلاث مرات بعد نية الطهارة"<sup>1</sup>

كما لا تصح الصلاة عندهم بدون وضوء، وهو عبارة عن غسل اليدين والوجه ومسح الجبهة وتنظيف الأذنين بالماء والاستنشاق والمضمضة وغسل الركبتين والساقين، ويصاحب كل عمل من هذه الأعمال بعض الأذكار المناسبة، فمثلا عند تنظيف الأذنين يقول: (لتسمع أذناي صوت الحياة)، وعند المضمضة يقول: (ليمتلىء فمي بدعوات التسبيح)، أما عند غسل الساقين فيقول: (لتتبع ساقاي سبل الحق والإيمان).

"ومما يفسد الوضوء: البول والغائط، وخروج الريح، ولمس الحائض، والنفساء، وأكل شيء ما قبل الصلاة، ولا يجوز الجمع بين صلاتين بوضوء واحد، وإن لم يفسد الوضوء"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص 87.

<sup>2</sup> - محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص 88.

## 2- الصلاة

الصلاة واجبة عليهم يؤدونها في اليوم ثلاث مرات، قبل طلوع الشمس، وعند زوالها، وقبل الغروب، وتُفضل الصلاة جماعة أيام الأحاد وفي الأعياد، وهي تقتصر على الوقوف والركوع والجلوس على الأرض دون سجود.



فتاة مندائية تؤدي الصلاة

(الصورة: 2)

## 3- الصيام

وهو عبارة عن الامتناع عن تناول المفطرات لمدة ثلاثين يوماً يوزعونها على أيام السنة، يقول ابن النديم في فهرسته: "المفترض

عليهم من الصيام ثلاثون يوماً"<sup>1</sup>، "أما اليوم، فإن الصابئة يصومون بالامتناع عن أكل اللحوم المباحة لهم والسّمك والبيض 36 يوماً، متفرقة بأيامها على طول السنة"<sup>2</sup> ويُسمى هذا الصيام بالصيام الأصغر، وهو مقدمة للصيام الأكبر وهو صيام الجوارح عن الآثام بالإقلاع عن المحرمات وهو مقصود الصيام، يقول كتابهم (الكنز العظيم) بهذا الشأن:

"يا أيها المؤمنون لقد قلنا لكم أن الصيام الأكبر ليس بامتناعكم عن الأكل والشرب، وإنما غض البصر عن النظرات الشيطانية والسيئة وعدم استراق السمع لأقوال الناس في بيوتهم.

لا تتفوهوا بالكذب والأقوال السيئة، وطهّروا قلوبكم من الحسد والضغينة وعقولكم من الأفكار السيئة والشريرة والمنافقة لأنّ المنافقين ليسوا مؤمنين.

الصوم هو أن لا تقتلوا ولا تنهبوا ولا تسرقوا.

الصوم هو أن لا تقرّبوا غير نسائكم.

الصوم هو أن لا تتحنوا للشياطين والأصنام وآلهة الكذب.

---

<sup>1</sup> - ابن النديم البغدادي، الفهرست، ص383.

<sup>2</sup> - محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص91، 92.

الصوم هو أن لا تسيروا في الطرق الخاطئة<sup>1</sup>.

إِنَّهُ حَقًّا لَنَمُودِجُ لَصِيَامِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(البقرة:183).

#### 4- المحرمات

تحرمّ تعاليمهم الدينية القتل والقتال إلا دفاعاً عن النفس، والزنا واللواط، وشرب الخمر ولعب الميسر، وجاء في كتابهم بهذا الشأن: "كل من عاقر الخمر وشربه وارتاد أماكن الفساد ووضع رجله في أماكن غير طاهرة، فلن يكون نصيبه في تلك الدنيا غير جهنم وستسكب في فمه النار الحامية"<sup>2</sup>، ومن المحرمات أيضاً حلف اليمين الكاذب، والسرقعة وقطع الطريق والسلب، وشهادة الزور، والنظر إلى المحصنة بريئة أو بشهوة، والغيبة والنميمة والفتنة، والامتناع عن سداد الدين أو ردّ الأمانة، والربا بجميع أنواعه وصوره، وأكل الدم أو شربه، والسحر والشعوذة، وهي تُعتبر من الأعمال السيئة والبغيضة ويُعاقب فاعلوها بأشدّ العقوبات، جاء في كتاب كنز ربا ما ترجمته: "ابتعدوا عن تعلم السحر، وخذاع الشيطان، ولا تشهدوا

<sup>1</sup> - محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص 92.

<sup>2</sup> - محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص 175.

بالباطل<sup>1</sup> وهذه المحرمات - كما نرى - لا تختلف عن المحرمات في الشريعة المحمدية وهي آخر الشرائع السماوية مما لا يدع مجالاً للشك في أنّ المصدر واحد.

### ثالثاً - عرب العراق وسوريا

وحين ننتقل إلى السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين، ونستمع إلى تراتيلهم الدينية نجد أنّ منها ما ينضح توحيداً خالصاً وإيماناً بالله الواحد الأحد، و"أنّ هذا الإله الواحد (الذي لا يُرى ولا يُحدّ) هو الذي كان قدماء السوريين يتوجهون إليه حينما يرتلون في المعابد (مزامير التوبة)، فيصفونه بالإله الخفيّ، المخبوء، المحجوب، مقرّين بعجزهم عن معرفته قائلين: (إلهي إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة .. أيها الإله الذي أعرفه أو الذي لست أعرفه إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة)"<sup>2</sup>

كما نجد نفس الإيمان في الكثير من التراتيل الدينية التي تُقرأ في المعابد، تقول نظلة الجبوري: "وتعد التراتيل والترانيم والابتهالات التي تقدم إلى هذا الإله أو ذاك مظهراً من مظاهر التعبير عن فكرة الحب الإلهي وتجسيدها الواقعي، على وفق ما يتضح من النصوص المتنوعة التي تضمنها الأدب العراقي القديم والتي يرفعها الإنسان إلى

<sup>1</sup> - محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص 175، 176.

<sup>2</sup> - أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم 1 - "المركز"، ص 153.

مقام الإله لتمجيده. ومن هذه التراتيل، نص ترنيلة للإله أنليل<sup>1</sup> تقول:  
(أنليل ذو السلطان الشامل المطلق والكلمة السامية المقدسة يقدر  
المصائر والأقدار إلى الأبد، فلا تبديل لأوامره، الرب العظيم، ذو  
السيادة والقدرة، المتسامي في السماء والأرض، العليم بكل شيء،  
والمتمرس بالأحكام)، وترنيمة دينية تصور مشاعر الحب الفياضة  
التي تنعكس عن تضرع الإنسان وتذللته للإله، فيقول ما نصه: "أنا  
خادمك أضرع إليك وقلبي مفعم بالحسرات، إنك لتقبل الدعاء الحار  
الصادر ممن أنقلته الذنوب، انك لتنظر إلى الرجل، فيعيش ذلك  
الرجل.. فانظر إلي بعطف حق وتقبل دعائي.."<sup>2</sup>

لقد شهدت بلاد السومريين والأكاديين والبابليين أعظم حضارة  
عرفها التاريخ قبل الميلاد بألاف السنين، وإنا لنستنتج من آثارهم  
ومدوناتهم صلة هذه الحضارة بالسماء التي وضعت علومها وقوانينها  
في خدمة الإنسان، فشرّعت له القوانين التي تحفظ النفس وتبسط  
العدل وترفع الظلم وتتظّم الحقوق الاجتماعية والعلاقات الأسرية،  
يكفي مثالا على ذلك شريعة حمورابي التي كُشفت في أنقاض مدينة  
السوس في عام 1902، منقوشة نقشاً جميلاً على أسطوانة من حجر  
الديوريت، وقيل عنها إنها منزلة من السماء، فترى الملك على أحد

<sup>1</sup> - أنليل: عين إيل، أي عين الله.

<sup>2</sup> - نظرة أحمد الجبوري، جريدة الزمان، العدد 1901، التاريخ 2004/9/1.

أوجه الاسطوانة يتلقى القوانين من (شمس)<sup>1</sup> ونقول في جزء من مقدمتها: "... في ذلك الوقت ناداني أنو وبعل، أنا حمورابي الأمير الأعلى، عابد الآلهة، لكي أنشر العدالة في العالم، وأقضي على الأشرار والأتمين، وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء... وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق.."<sup>2</sup> ويصل عدد هذه القوانين إلى 285 قانوناً رُتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث، كما يقول "ول ديورانت"، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأحكام المنقولة، وبالأحكام العقارية، وبالتجارة، والصناعة، والأسرة، وبالأضرار الجسيمة، وبالعمل.. ثم يضيف: "وهي من وجوه عدة لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوربية حديثة"<sup>3</sup>.

ونجد أن قانون النفس بالنفس الذي جاءت به شريعة حمورابي هو نفسه موجود في التوراة وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (المائدة:45)، مما يدل على أن مصدرها واحد، وإن هدفها واحد وهو تحقيق العدل بين الناس (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا

<sup>1</sup>-(شمس) يقصد بها الشمس اتخذت رمزاً للنور الإلهي.

<sup>2</sup>-ول ديورانت، قصة الحضارة، مج1، ج2، ص190.

<sup>3</sup>-ول ديورانت، قصة الحضارة، مج1، ج2، ص191.

مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)(الحديد:25)، وهو الهدف الذي تؤكد عليه هذه الشريعة، فتقول في خاتمتها: "إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة.. أنا الحاكم الحفيظ عليها، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد... وبحكمتي قيدهم، حتى لا يظلم الأقياء الضعفاء، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة... فليات أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة وليقرأ النقش الذي على أثري، وليلق باله إلى كلماتي الخطيرة، لعل أثري هذا يكون هادياً له في قضيته، ولعله يفهم منه حالته، ولعله يريح قلبه فينادي: حقاً أن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه.. لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة... ولعل الملك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل يرفع أفاظ العدالة التي نقشتها على أثري"<sup>1</sup>.

### رابعاً- عرب وادي النيل

أما في بلاد وادي النيل فإنه بالرغم مما ذكره الباحثون الغربيون عن كثرة الآلهة وتعدد أشكالها واختلاف مسمياتها، لأسباب لا صلة لها بالحقيقة، بالرغم من كل ذلك تجدهم يعترفون بوجود صورة في أذهان المصريين لإله أعظم وأكبر من هذه الآلهة، يقول

<sup>1</sup>- ول ديورانت، قصة الحضارة، مج1، ج2، ص191، 192.

أدولف إرمان: "ومما يبعث على الدهشة أن المصريين كثيراً ما تحدثوا - علاوة على ألتهم المعينة - عن (إله عام) ويحدث ذلك عادة في الأدب عندما يفكرون في تلك القوة التي تتحكم في مصائر الناس. فمثلاً يقولون: (ما يحدث هو أمر الله)، (صائد الطيور يسعى ويكافح ولكن الله لا يجعل النجاح من نصيبه)، (ما تزرعه وما ينبت في الحقل هو عطية من عند الله)، (من أحبه الله وجبت عليه الطاعة)، (الله يعرف أهل السوء)، (إذا جاءتكم السعادة، حقّ عليكم شكر الله)" ثم يضيف قائلاً: "هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقّة"<sup>1</sup>، بل ترى المنصفين منهم لا يتردد في إعلان الحقيقة كما هي دون مؤاربة، ففي محاضرة له عام 1869م صرح "دي روجيه" قائلاً: "أنا قلت (إله) وليس (ألهة). إن الخاصية الأولى للديانة (المصرية) هي وحدة (الإله) التي نعبر عنها بكل قوة فنقول: الإله الواحد، الفرد، الصمد، لا شريك له - هو الكائن الأوحد - الحي في الحقيقة - أنت الواحد، وملايين الكائنات انبثقت منك - خلق كل شيء وهو الوحيد الذي لم يخلقه أحد... لقد سادت فكرة واحدة، فكرة الإله الفرد الأول، هو الجوهر الواحد الدائم في كل مكان، موجود بذاته، إله لا يمكن الوصول إليه"<sup>2</sup>، وكان العالم "هينريش بروجش" من أبرز علماء المصريات الألمان في أيامه، وقد

<sup>1</sup> - أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص 97، 98.

<sup>2</sup> - إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية - الوحدانية والتعدد، ص 8، 9.

ظهر الجزء الأول من كتابه "الدين والأساطير عند المصري القديم" في عام 1885م والذي يعترف فيه عن اقتناع بأن المصريين قد عبدوا (في تلك العصور السحيقة) "الإله الواحد، المتعذر وصفه أو إدراكه، الأبدي في صفاته الأسمى"<sup>1</sup>.

هذا المعنى تزخر به التراتيل العبادية وتؤكدده، ففي ترتيلة آمون نقرأ ما يدل على أنّ (آمون)<sup>2</sup> هو أصل كل شيء: "إنه وُلد (وُجد) في البدء وليس هناك إله آخر ظهر قبله، ولم يكن معه إله آخر ليشير إليه بصورته. لم تكن له أمّ تمنحه اسمه ولا أب ليكون أصلاً له وليقول له: "ها أنا ذا". إن كل شيء آخر صدر عنه"<sup>3</sup> وفي ترتيلة أخرى يصفون الإله الواحد بقولهم: "إنّه لا يمكن تمثيله في الحجر، وإنه لا يمكن أن يُرى في الصور المنحوتة التي يضع عليها الناس التاجين المتحدّين، تاج الجنوب وتاج الشمال، المزودين بصورة الصل، وما من قربان يمكن أن يقرب إليه، وهذا شبيه بما تشير إليه الآية الكريمة: (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ) (الحج:37)، وليس في الميسور أن نجعله يأتي من مكانه

<sup>1</sup> - إريك هورنوج، ديانة مصر الفرعونية - الوحدانية والتعدد، ص12.

<sup>2</sup> - لقد أطلق عرب وادي النيل على الإله الواحد اسم "من" أو "معن" أي "المعنى" (إذ كانت تكتب الكلمات بدون صوتيات، وقد قرأها الدارسون مانا، ميناء، مون، مونا، آمون) والكلمة في لغة "جامد" المندائية العربية القديمة التي تكلم بها إدريس والتي هي إحدى لهجات العربية السريانية القديمة هي "مانا" وتعني "المعنى". أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم، ص153.

<sup>3</sup> - أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص192.

السري. مجهول هو المحل الذي يحل فيه، ويتعذر أن نلقاه في المزارات المنقشة، فلا وجود لمسكن يمكنه أن يحتويه، وليس يسعك أن تدرك صورته في قلبك"<sup>1</sup>.

وقد عُرف عن قدماء المصريين اهتمامهم بمراسم الدفن والاستعداد لما بعد الموت، فمن أين نبع هذا الاهتمام إن لم يكن من إيمانهم بالله سبحانه وما أنبأت به رسله من حقيقة البعث والحساب والحياة الأبدية الآخرة، بل ويؤكدون-كما في (متون الأهرام)- بأنّ الأتقياء "لا يذهبون أمواتاً بل يذهبون أحياء"، وأنهم لا يحيون بعد الموت حياة الأطياف والأشباح فحسب، وإنما يُبعثون لحياة حقيقية جديدة يحرزون فيها أجسادهم وأرواحهم: "قلهم قلوبهم، ولهم أرواحهم، ولهم أفواههم، ولهم أرجلهم، ولهم أذرعهم، ولهم سائر أعضائهم"<sup>2</sup>.

كما تصوّر بردية قديمة ما يجري للميت من محاكمة بعد انتقاله إلى ذلك العالم حيث يتم وزن قلبه في الميزان العظيم بالريشة في إشارة واضحة إلى دقة الحساب (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ\* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: 7، 8)، ورمزية القلب تشير إلى النوايا التي تحرك الإنسان وعليها يُحاسب فإتّما الأعمال بالنيّات

<sup>1</sup>- أحمد يوسف داوود، الميراث العظيم، ص151.

<sup>2</sup>- أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص303.

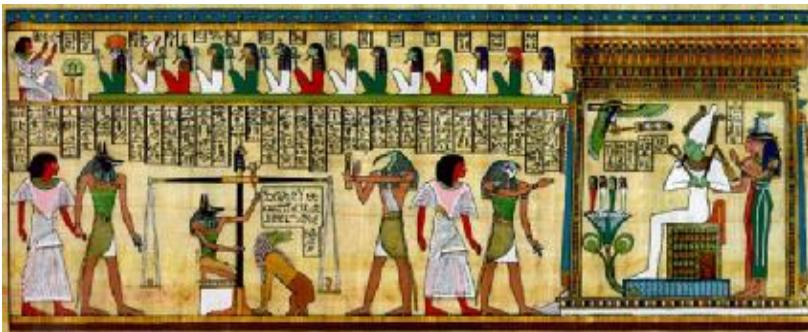
(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ\* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(الشعراء:88، 89)، ولهذا تجد عند المصريين القدماء الكثير من التعاليم التي تحذر من ظلم الآخرين وعاقبته في الآخرة وتوصي بالاهتمام والالتفات إلى المصير القادم الذي لا بد منه حين يقف المرء أمام "القضاة الذين يفصلون في قضايا المظلومين"، وتطالبه بالمبادرة إلى العمل الصالح قبل الموت: "لا تثق بطول السنين، فإتاهم ينظرون إلى أمد الحياة كأنها ساعة. وإنّ الإنسان ليبقى بعد الموت وستكون أعماله إلى جانبه"، "أما من يأتي إلى قضاة الموتى مبرأ من كل ذنب فسيكون مثل إله، ويسير حرّاً طليقاً كسادة الأبدية"<sup>1</sup>.

ومن التعاليم ما يأتي على شكل اعترافات سلبية يقدمها الميت حين المحاكمة لتبرئة نفسه من الذنوب فيدعو الإله قائلاً: "ك الحمد أيها الإله العظيم... هأنذا أجيء إليك، أجب الحقيقة وأطرد الإثم. إني لم أقترف إثماً ضدّ البشر... ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة، ولم أسع بأحد عند رئيسه، ولم أجوع أحداً، ولم أدع أحداً يبكي، ولم أقتل، ولم أدع إلى القتل، ولم أسبب لأحد أماً... ولم أطفف في مكيال الحب، ولم أنقص مقياس الذراع... ولم أسلب اللبن من فم

<sup>1</sup> - أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص310.

الطفل، ولم أسرق الماشية من مرعاها، ولم أسدّ على الماء الجاري... ولم أعترض الإله في شيء من إرادته"<sup>1</sup>.

فعرّب وادي النيل إذن كانوا موحدّين باعتراف الكثير من الباحثين الغربيين الذين درسوا ديانة المنطقة، رغم محاولات البعض تشويه هذه الحقيقة لتصب في مصلحة الادعاء اليهودي بأنّ التوحيد في هذه المنطقة بدأ بموسى(ع) وهي فرية تاريخية أخرى<sup>2</sup> لا تقل عنها نسبة اختراع التوحيد إلى الملك إخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد!



المحاكمة وفيها يتم وزن قلب الميت بالريشة

(الصورة: 3)

<sup>1</sup> - أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، ص312.

<sup>2</sup> - انظر بحث: نداء السراة - اختطاف جغرافيا الأنبياء، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

## خامساً - أختاتون والتوحيد

يُرجع أكثر الباحثين الفضل في تأسيس التوحيد في بلاد وادي النيل إلى أختاتون (1378-1362 ق.م.)، لأنه كما يقولون وحد الآلهة في إله واحد هو (أتون) المتمثل في قرص الشمس! طبعاً اتخذ الشمس رمزاً للإله لم يكن أختاتون أول من بدأ به، فقد كان موجوداً قبل ذلك باسم إله الشمس (رع)، ولكن الفرق بين الحالتين هو أن التوجه إلى الشمس قبل ذلك كان توجهاً نحو ضياء الشمس كرمز دال على الإله، أما توجه أختاتون فهو نحو قرص الشمس نفسه باعتبارها هي الإله واهب الحياة! الأمر الذي عارضه الكهنة، فاضطر أختاتون في سبيل فرض إلهه الجديد إلى إعلان حرب ضارية على التوجهات العبادية السائدة وخاصة التوجه إلى الإله (أمون)، فأرسل جنوده وأتباعه ليقوموا بمحو أسمائه وصوره من على الآثار القائمة، ويهشموا تماثيله في المعابد، واتخذ سلسلة إجراءات أخرى تعزز فرض المعتقد الجديد، منها تغيير اسمه من (أمنوتب)<sup>1</sup> الذي يحمل اسم أمون في أوله إلى (أختاتون) الذي يحمل اسم أتون في آخره ويعني (كاهن أتون) فهو إذاً ممثل الإله أتون! وترك العاصمة (طيبة)

<sup>1</sup> - أمنوتب = أمون - حو - تب = أمون خو طيبة، فالحاء السريانية خاء، والتاء طاء، أي أمون صاحب طيبة (وهي العاصمة الأولى)، وكانت كتابات الهيروغليفية بدون أصوات لا واو ولا ياء.

مركز الإله آمون، وبنى عاصمته الجديدة (أخيتاتون) في تل  
العمارنة<sup>1</sup>.

إنّ ما قام به (أخناتون) لم يكن بدافع تصحيح العقيدة والدعوة  
إلى التوحيد كما هو واضح من الوثائق السابقة، وليس أدلّ على ذلك  
أيضاً من تأكيده على دفن عجل هليوبوليس المقدس (منفيس) في نفس  
الجبل الذي به مقبرته التي أعدّها لدفنه هو والملكة نفرتيتي وابنتهما  
ميريت آتون، لأنه تجسيد لإله الشمس! يذكر ذلك "سيريل ألدريد" ثم  
يعلق على ذلك بقوله: "والغريب أن هذا الاحتياط من جانب الملك  
يُحيي به أحد الطقوس الموغلة في القدم ويتعارض تماماً مع اتجاهه  
العقلاني الصارم لعبادة إله أوحد"<sup>2</sup> ويلخص "سيريل ألدريد" موضوع  
علاقة أخناتون بالتوحيد بقوله: "وقد عرفنا من قبل أنّ أباه قد مجّد  
نفسه بنفسه باعتباره إلهاً، ولم يزد أخناتون على ذلك شيئاً عندما مجّد  
نفسه، وفي النهاية أصبح آتون في نظره مجرد ملك سماوي متطابق  
معه كملك أرضي وله نفس ألقاب نظيره الأرضي هذا  
(أخناتون)(!!)"<sup>3</sup> وفي صورة لعلّها أفضل من تلك، يصوّره (إريك  
هورنونج) بأنه رسول الإله آتون والوسيط الوحيد فيقول: "وكما تم  
تقليص العدد الوفير من الآلهة إلى واحد، تم ذلك أيضاً مع مجموعة

<sup>1</sup> - سليمان مظهر، قصة الديانات، ص50.

<sup>2</sup> - سيريل ألدريد، أخناتون، ص184.

<sup>3</sup> - سيريل ألدريد، أخناتون، ص215.

الوسطاء. فأصبح المؤمن المتعبد في عصر العمارنة يصلي في منزله أمام مذبح يضم صورة الملك وعائلته، والتي رآها (مورينز) على أنها تشير لصور الزعيم في كل المظاهر السياسية العامة، ومضمونها الديني أن أختاتون هو الوسيط الوحيد، كما تُقرر ذلك تسابيح عصر العمارنة. فيمكن تلخيص العقيدة الجديدة في الواقع في الصيغة التالية: (لا إله إلا آتون، وأختاتون رسوله)<sup>1</sup>.

إنّ فرض العقيدة على الناس دون إقناع واقتناع داخلي لا يثمر إيماناً بل خضوعاً صورياً لهذه العقيدة، ولهذا كانت دعوة الأنبياء إلى التوحيد تلامس دوماً عقل الإنسان، وتروم التأثير على قلبه لا قالبه، ولو شاء الله لأنزل على الناس من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين، يكفي لإقامة الحجة عليهم أن يذكرّوهم بمنسيّ النعم التي لا تُحصى، وبما انطوت عليه فطرتهم من توحيد لئله الواحد الأحد (فذكرْ إنّما أنتَ مُذكرٌ\* لستَ عليهم بمُصيطر) (الغاشية: 21، 22)، لا أن يُفرض ذلك عليهم من الخارج وبالقوة! فذلك لن يُؤتي ثماره، وهذا ما حصل بالفعل، فبعد رحيل أختاتون وزوال القوة التي كانت ترعى الديانة المفروضة رجع الناس إلى عبادتهم السابقة، إنّ ما فعله أختاتون أقرب ما يكون إلى جرّ الأمة لتوحيد ولائها إليه منه إلى التوحيد العقائدي الصحيح.

<sup>1</sup> - إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية - الوجدانية والتعدد، ص 259.



أخناتون يصلي للشمس مع زوجته نفرتيتي وابنتهما ميريت

(الصورة: 4)

## الفصل الثالث

### تعبير الأوائل عن عقيدة التوحيد

إنّ قراءة متعمّقة في التراث العربي الديني تكشف لنا عن حقيقة الإيمان العميق لدى العرب الأولين بالإله الواحد الأحد، الذي خلق السماء والأرضَ والماء والهواء والدوابّ، بل تكشف لنا عن معرفتهم بالكيفية التي تمت بها عملية الخلق تلك، وأنها تمت بواسطة الملائكة الموكلة بتدبير شؤون الخلق وفق إرادة الله سبحانه، وإنّ العرب كانوا يحتفظون بهذه المعارف والتعاليم في المعابد مكتوبة بطريقة خاصة يعتبرونها كتابة مقدسة صوتاً وتمييزاً لها عن الكتابة العادية، وهذه المعرفة بهذه الأمور الغيبية لا يمكن أن تُتحصّل إلا بتعليم رباني تمّ بثّه عبر الملائكة والأنبياء(ع) من مركز الإشعاع التوحيدي، وبالطبع فإنّ ذلك كلّه لا يمنع من طروء حالات من الشرك حينما تضعف موجة البثّ الإيمانية كلما ابتعدنا عن نقطة البثّ مكاناً أو زماناً حيث تقسو القلوب فتزيغ عن الحق (كالدّين أوّثوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقسّت قلوبهم)(الحديد: 16).

## أولاً- الفكرة أرقى من الكلمة

إنّ تعبير الأولين عن عقيدتهم التوحيدية آنذاك يقصُر اليوم عن إيصال فكرة التوحيد إلى أذهاننا كما هم وعوها وآمنوا بها بالأمس البعيد، وذلك لأنّ الكلمة وهي وسيلة التعبير عن الفكرة أو المعنى لا ترقى أبداً إلى مستوى الحقيقة التي في ذهن قائلها، فمهما كانت الكلمات أو الأسماء فهي لا تحيط بحقيقة المسميات وإنما هي صورة عنها ونسخة منها لا هي هي، والنسخة لا تكون كالأصل تماماً، فكلمة (حاسوب) مثلا تدل على جهاز متطور يُستخدم لمعالجة المسائل ذات العلاقات الرياضية المعقدة، وهي تعبير لتوصيل فكرة هذا الجهاز، وليست هي هو كما لا تغني معرفتها عن معرفته لمن أراد التعامل معه، هذا في الماديات وكذلك في المجرّدات فكلمة (الصدق) لا يمكن إدراك معناها إلا عبر رؤية آثارها ضمن ممارسات وأفعال كثيرة وفي ظروف مختلفة تعبّر كلّها عن معنى الصدق، ويكون الأمر أكثر تعقيداً عندما يكون الكلام عن عالم الروح، فلا يمكن ملامسة حقيقة الروح من خلال الكلمة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)(الإسراء:85).

وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة (الله) الذي هو اسم يدل على معنى، وهو كما قال الإمام الصادق(ع) لهشام بن الحكم حينما سأله عن أسماء الله سبحانه: "...والاسم غير المسمّى، فمن عبد الاسم دون

المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد الاثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد"، فقال له زدني فقال: "لله تسعة وتسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها هو إلها، ولكن الله عز وجل معنى، يدل عليه بهذه الأسماء وكلها غيره.."<sup>1</sup>.

ومن ذاق طعم الحقيقة فليس بمقدوره أن ينقل التجربة عينها للآخرين عبر الكلمات على طريقة القطع واللصق دون معايشة الحقيقة وحصول الكشف فيها وتدوقها، ولذا قيل (من ذاق عرف)، وإنما يستطيع بالكلمات أن ينقل صورة عنها فقط، قد تقترب أو تبتعد عن الحقيقة الأصلية حسب دلالات الألفاظ المستخدمة ودقتها من جهة، واستعداد المتلقي من جهة أخرى.

ثم أنّ الأولين حين عبّروا ورمّزوا وكتبوا عن عقيدتهم، فعلوا ذلك حسب مستواهم المعرفي وبلغتهم البسيطة المتاحة، ولم يكن في اعتبارهم الدارسون الذين سوف يُخضعون تلك التعابير والرموز للدراسة والتحليل بغية فهمها بعد آلاف السنين، فهم قد كتبوها لأنفسهم وبلجاتهم التي يفهمونها والتي يتخاطبون بها، فإنهم مثلاً حين يصفون الإله بـ(كثيرة عيونه وكثيرة آدانه)<sup>2</sup> إنما يقصدون بذلك أن

<sup>1</sup> - الصدوق، التوحيد، ص221.

<sup>2</sup> - فراس السواح، معتقدات الشرق القديم : <http://maaber.50megs.com>

يصفوه بـ (البصير السميع)، المشكلة إذن في فهمنا نحن، خصوصا بعد تضليل الباحثين نتيجة أخطاء الترجمة التي ربما حرفت الكلمات عن معناها الأصلي، فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الكلمات مرّت بأطوار من التشكل عبر رحلتها من جيل إلى آخر ومن مكان إلى غيره، وأنّ الكثير منها كان يتعرض للزيادة أو الحذف أو الإبدال أو الإقلاب، وأنّ اللغة المستعملة ليست جامدة وإنما تتطور مع ظهور الاحتياجات الجديدة وزيادة الاكتشافات وتلاقي اللهجات، وأنها وصلتنا اليوم مكتوبة وليست منطوقة، وأنها كانت تُكتب كما تُتلق بدون حركات أي ساكنة وبدون تصويت، إذا أخذنا كل ذلك في الاعتبار أدركنا كم هي قاصرة اليوم وغير قادرة على التعبير لنا عن المعنى الحقيقي الذي وُضعت له أول مرة، ولا بد لفهمها الفهم الصحيح من الرجوع بها إلى أصلها العربي القديم.. اللغة العربية القديمة وما تفرّع عنها من لهجات سريانية وأمورية وفينيقية، وتشعباتها.

ولهذا جاءت الشريعة المحمدية مكتسبة حُلة اللسان العربي المبين، وباعتبارها آخر الرسائل السماوية، جاءت تعاليمها فيما يخص العقيدة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، صادحة بالدعوة إلى التوحيد ونفي الأنداد والنهي عن الشرك، مزيلة كل أسباب التوهم

والالتباس، وكما قال رسول الله (ص) في أواخر حياته: (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)<sup>1</sup>.

وقد علل القرآن نزوله عربياً بـ (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف:2)، و(لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ) (الشورى:7)، و(لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَى لِلْمُحْسِنِينَ) (الأحقاف:12)، ولا يمكن أن يكون كذلك لمن نزل فيهم وللأجيال اللاحقة على مر السنين إلا إذا كانت لغته وبهذه الصيغة التي نزل بها قادرةً على اختزان المعنى والمحافظة عليه، ليكون المعجزة الخالدة لا كما كانت معجزات الرسل السابقة ذات الطابع المحسوس والمحدود بظرفي الزمان والمكان. فالقرآن هو الكلام المعجز والمعبرّ تعبيراً واضحاً عن عقيدة التوحيد الحقّة، والحافظ لها على مر العصور حتى نهاية الأجل المسمّى للإنسانية، وقد تولت العناية الإلهية حفظ هذا الكتاب باعتباره آخر الكتب السماوية من أن تطاله أيدي التحريف أو التغيير لطول العهد أو كثرة النقل عبر الأزمان، ليكون حجة على مَنْ بلغه حيث تصله رسالة ربّ العالمين كما نزلت نصّاً محفوظاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، (وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِنُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَلَيْسَ لَكُمْ لِمَنْ تَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا

<sup>1</sup> - ابن ماجة، السنن، ج1، ص16.

تَشْرِكُونَ) (الأنعام: 19)، وكما نرى فإن مضمون هذه الرسالة أو الإنذار يتلخص في التوحيد، ليتساوى الناس في الامتحان الإلهي، ثم ليختلفوا هم بعد ذلك - فهذا شأنهم - حسب سعيهم وجدهم في الفهم والتطبيق، ولهذا تعهد الله سبحانه بحفظه (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: 9)، وتحدى الجن والأنس أن يأتوا بمثله، وأكد أنهم لن يستطيعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، تحقيقاً للوعد الإلهي بظهور الدين الحق على الدين كله ولو كره المشركون.

## ثانياً - الآلهة والأرباب

لقد شاب كلمة (الآلهة) الكثير من التشويش وعدم الوضوح عند الباحثين في تاريخ الديانات السابقة فاعتقدوا خطأ كما فعل كريمر ومن أخذ عنه مع الأسف، أنّ ديانة السومريين تنضح وتعجّ بتعدد الآلهة، ولا يدري أنّ المترجمين والمفسرين هم الذين أخطأوا في الفهم، فعقيدة تعجّ بالأخلاق والحكم الرفيعة والمثل وشرائع العدل والتكافل لا يمكن أن تكون وثنية وخرافية، ولو قرأوا القرآن ورأوا يوسف (ع) يقول للساقى السجين: (الذِّكْرِي عِنْدَ رَبِّكَ) (يوسف: 42)، وهو يقصد ملكه فرعون، لظنوا أنّ يوسف مشرك، أو قول عيسى (ع): (لَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ) (متى 23: 9) لظنوا بولادة البشر من الإله الواحد الصمد، أو قول المزامير في التوراة بنفس

المعنى: (الله قائم في مجمع الألوهية، في وسط الآلهة يقضي)(مزمور 82: 1) فهذا هنا آلهة أيضاً.

إذن، هي كلمات دارجة، لا يُخطئ في فهمها إلا من أتى من خارجها، فالسومريون لم يكتبوها لنا بمعزل عنهم، هم كتبوها لأنفسهم ولأجيالهم الذين يعرفون اللغة، والذين سيتعلمونها بدورهم على أيدي معلمهم من كهنة المعابد بالخصوص، تصوّر لو وقع بين يديك تعاليم في الهندسة الجينية، أو الكيمائية، أو النوويّة أو تعليمات برمجة كمبيوترية، فإنّ كان ليس عسيراً عليك اليوم أن تُحوّلها إلى ألفاظ صوتية وتعرف أيضاً معاني مفرداتها، فهل تستطيع فهمها من دون مختصّ في ذلك العلم المسطور؟

فالذي لا يفهم من كلمة "عبد" إلا التعبّد للإله وطقوس الركوع والسجود والتذلّل، وليس الخدمة أو الطاعة أو الحبّ أو الارتباط أو الشغف بالتفكير في الشيء "المعبود"، وليس التسخير والتهيئة (من "عبد")، لحتّم جازماً أنّ "عبد مناف" و"عبد شمس" و"عبد المطلب" و"عبد الدار" كلهم مشركون ليس فيهم أحناف ولا موحدون، ولكقر اليوم منّ تسمّوا بـ"عبد الرسول" أو "عبد الحسين"، ولربما استنتج من اسم "عبد الزهراء" أنه من عبدة النجوم والكواكب! إنّما الذنب ذنب الترجمة ثمّ في الفهم والتفسير، هذا علاوة على ما يُضاف من تصوّر سابق، ونعني به الفكرة السائدة بأنّ التوحيد بدأ بموسى (ع)، وبأهل

التوراة، والعرب خلال التاريخ كانت وثنية، هذا وهمٌ وخطيئةٌ كبرى!  
فأين ذهبت الأنبياء والتّاس منذ آدم الأوّل؟!

إنّ قدامى العرب، لم تُخطئ حين ميّزت الملائكة التي تقف وراء ظواهر الطبيعة وقواها وقوانينها بتسميتها "أرباباً" كما تُسمّيها اليوم "أسباباً" و"قوانين" و"وسائط" و"تجليات" و"رُسل ربّانية" فالأمر واحد، مفاده أنّ لها السلطان علينا وأنا يجب أن نخضع لها ونطيعها لأنّها قوانين ونُظْم، ويسبق لنا الهلاك متى تمرّدنا عليها وعصيناها.

بل لا تبعد صحة تسميتها عندهم بالآلهة من باب نسبة أدوارها إلى الله سبحانه في علاقة طويلة منسجمة مع الإرادة الإلهية فهم (لا يَسْفُوتُهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)(الأنبياء:27)، دون أي استقلالية (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)(الأنبياء:29)، ومثال ذلك (توفي الأنفس) فهو فعل واحد يُنسب إلى الله مرة وأخرى إلى ملك الموت أو الملائكة باعتبارها منفذة ومدبرة ومجسدة لإرادة الله سبحانه، تماماً هو المعنى الذي نجده في أحد الأدعية: (اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك المأمونون على شرك المستبشرون بأمرك الواصفون لقدرتك المعنون لعظمتك، أسألك بما نطق فيهم من مشيتك فجعلتهم معادن لكلماتك وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان، يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك

وخلقت فتقها ورتقها بيدك، بدؤها منك وعودها إليك أعضاد وأشهاد  
ومناة وأدواد وحفظة ورواد، فيهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر  
أن لا إله إلا أنت..<sup>1</sup> إذن فهي مخلوقات علوية أنيطت بها أدوارٌ  
تبرز فاعلية بعض أسماء الله الحسنی بلغتنا اليوم، وتجسد القدرة  
الإلهية في محيطنا، كالخالق والرزاق والودود والحفيظ والمميت.  
يُنظر إليها بهذا اللحاظ فقط، ومنه نفهم قول دعاء يُروى عن الإمام  
الصادق (ع): (يا الله يا رحمن يا ربّ الأرباب وإله الآلهة ويا ملك  
الملوك ويا سيد السادة اشفني بشفائك من كل داء وسقم فإني عبدك  
أثقلب في قبضتك)<sup>2</sup> وما جاء على لسان موسى (ع) وتضمنته التوراة  
(لأنّ الربّ إلهكم هو إله الآلهة وربّ الأرباب إله العظيم الجبار  
المهيب الذي لا يأخذ بالوجوه ولا يقبل رشوة) (تشية 17: 10).

إنهم لم يتوسلوا لها بالعبادة والتوحيد، ولا بالاعتقاد بمشاركتها  
الإله الواحد كحال الوثنيين، ولم يحبوها معه بل أحبوا فيها وكانوا  
يعرفون أنّ لها مديراً مالكا هو ربّ الأرباب، إله الآلهة (نسميه اليوم  
ربّ الأسباب/ مسبب الأسباب/ جاعل الملائكة رسلا، الأمر واحد).  
ولم يُخطئوا حين جعلوا كلّ من هو مفترض الطاعة ربّاً، ونحن  
نسميه اليوم معلماً ومرتبياً، فلغتهم -التي يفهمونها هم- تُسوِّغ لهم أن

<sup>1</sup> - الطوسي، مصباح المتهد، ص 803.

<sup>2</sup> - الكليني، الكافي، ج 2، ص 566.

يُسَمُّوا أمير الجند ربًّا، والمعلم، والملك، والقاضي، والمشرِّع، أرباباً، هم لا يعنون أنّ هذه الأصناف كائنات غير بشريّة، ولا أنّهم غير مخلوقين فيستحقّون العبادة والتأليه، بل عنوا أنّهم يستحقّون التبجيل والطاعة والإذعان وخلافة الله فيهم.

فضلاً أنّ اللغة لم تتخصّص مفرداتها بعد، فالله ربّ، والمدبّرون أرباب، وقوانين الطبيعة أرباب، وساسة المدينة أرباب، وهذا كما نحن نقول اليوم: ("الله نور"، والشمس نور، والقمر نور، ونور القمر من الشمس، والوحي نور، والنبوة نور والنبی نور، والعقل نور، والملائكة من نور، والمصباح نور، والعلم نور، والشمعة تُؤدّ النور). فتصوّر لو جاء بعد زمن من أراد أن يُحلّل عقيدتنا من كلامنا في الجملة السابقة، لتوصّل بأنّ الملائكة التي من نور هي بنات الله لأتّه النور، ثمّ لأخبر بأننا نعتقد أنّ الله له أندادٌ وإخوةٌ كثيرون ابتداءً من المصباح وصولاً للشمس، ولأنّ شكل كيف أنّ القمر هو ابنٌ للشمس ثمّ صار نوراً (إلهاً) مثلها، ولاستنتج بالمنطق نفسه أنّنا نقول أنّ الشمعة هي أمّ الله لأتّها ولدت النور! بمثل هذه الأغاليط تمّت معالجة الكثير من تراث المعلمين الأوائل فأجحفنا في حقهم وجددنا فضلهم، وصرنا نكرّر ما يُقال لنا مُستورداً بشأنهم.

فالأوائل سمّوا عناصر الطبيعة والاجتماع الإنسانيّ الفاعلة أيّاً كانت أرباباً، إنّما من دقيق فهمهم ومن احترامهم للنواميس وقوانين

الطبيعة والاجتماع، لا من سخف عقولهم وسفههم، بل الحقائق التي كانوا هم عليها لو التزم الناس بها اليوم لما تاهت البشرية ولألفينا أنفسنا في انسجام أفضل مع بعضنا، ومع الطبيعة، ومع الكون ونواميسه، ومع خالقنا العليّ.

أما اليوم فإنّ الحسائيّة من كلمة "أرباب" يستشعرها كلّ مؤمن موحد في اعتقاده، حيث لا ربّ حقيقي إلا الله تعالى، فكذلك الإله فلا إله إلا الله، لذلك ضمّن القرآن الاثنتين قطعاً لأيّ التباس، فكما جاء (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران: 80)، (اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: 31) جاء أيضاً (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) (الزخرف: 45)، فعلى المستوى العقائدي والحقيقي، لا ربّ ولا إله، بل ولا محيي ولا مميت ولا رازق، بل ولا حيّ ولا كريم ولا قدير ولا عالم، إلا الله تعالى، لكنّ على مستوى المثل، تتسع اللغة لتسمية المرَبّي والمباشر للرعاية والمسئول ربّاً، كربّ الأسرة وربّ العمل ولذلك قال يوسف لساقى الملك (ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) (يوسف: 42)، وقوله عن سيّده الذي آواه فلا يجدر به خيانتَه (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُقْلِحُ

الظَّالِمُونَ) (يوسف: 23)، ولو كان يعني "الله" للزم أن يقول (معاذ الله ربِّي، الذي أحسن مثواي). ولما أتى بوصف "الظالمون" الوصف اللائق بالتعدّي على حقّ الغير، ولذلك عقب في فترة لاحقة في القصة (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) (يوسف: 52)، هذه المفردة "الرب" أطلقها العرب على كلّ من له مكانة عالية، كمعلم، ورسول، وملك، ورئيس، لذلك نقرأ في الإنجيل: (فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان فقال لهما: «ماذا تطلبان؟» فقالا: «ربّي (الذي تفسيره: يا معلم) أين تمكث؟») (يوحنا 1: 38)، فالمعلم والرسول ربُّ (لغة) أيضاً.

ثم إنّ هناك الكثير من النصوص الدينية الثانوية أعطيت من قبل الدارسين الأجانب نفس قيمة النصوص الأصلية في الدلالة على جوهر المعتقد، مما أخلّ بالمنهجية العلمية للدراسة بافتراض مقدمات غير صحيحة، فكانت النتيجة مسخاً مشوهاً للعقيدة لا يقرّ بها عاقل. وذلك حين اعتبر الكثير من الباحثين في هذا الموضوع أنّ ما حوته بعض الأساطير من كلام عن الإله أو تجلياته وصفاته، أو من الصلوات وتعايير الحب والخضوع له التي صاغها المؤمنون به، اعتبروها بمثابة النصوص الأصلية التي تدل على العقيدة، والحقيقة إنّها تعابير أصحابها يعبرون بها عن مستوى ما عرفوه عن الإله والكائنات العلوية في أحقاب مختلفة، وهي ليست بالضرورة كاملة

الدقة والصحة كما في النصوص الأصلية التي إما أن تكون مما حوته الصحف والكتب السماوية أو من أقوال الأنبياء والأولياء الصالحين الذين عرفوا الله سبحانه حق معرفته فوصفوه بما يليق من أسمائه وصفاته، وقد أثبت القرآن الكريم صحة وصفهم بقوله: (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ \* إِنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ) (الصفافات: 159، 160).

ولو أننا لم نسلّم بالنتيجة القائلة: بأنّ آباءنا الأولين لم يعرفوا حقيقة التوحيد إلا بعد مراحل من الوثنية والشرك وعبادة الآلهة المتعدّدة! والتي لا تخلو من قصد الإساءة إلى هذا التراث العظيم، ورجعنا إلى النصوص الأصلية لما ساورنا أدنى شكّ في دلالتها على جوهر العقيدة الصحيحة، فنصوص المندائيين، ونصوص الحكمة المنتشرة شرقاً وغرباً تدل دلالة واضحة على أنّها حين تذكر الإله فإنّما تعني به الإله الواحد الأحد:

"لا تتباه بقوتك... فلا نعرف ما سيحدث (ولا) ما سيفعله الإله عندما يعاقب"

"لا تؤذ أحداً من البشر، لأنّ الإله يعاقب بالمثل... إن ما يخطئه الإنسان لا يتم أبداً، ولكن أوامر الإله هي التي تنفذ"

"الذي يسمع (يطيع) هو الذي يحبه الإله، والذي يكرهه الإله لا يمكنه أن يسمع"

"إن إردباً أعطاك الإله إياه أفضل من خمسة آلاف تكسبها ظلماً"<sup>1</sup>.

### ثالثاً - إله واحد ومظاهر متعددة

لقد جرى الخلط بين الإله الواحد الأحد وبين تجليات القدرة الإلهية حين صنّفها الباحثون - قصوراً أو تقصيراً- في عداد الآلهة، وخرجوا لنا بقائمة طويلة من الآلهة المتعددة بأسماء مختلفة، بينما هي تجليات وفيوضات ومبادئ وقوى إلهية أقرب إلى تسمية (الأرباب) منها إلى (الآلهة)، يقول أحمد يوسف: "إننا إذاً، عندما نقول كلمة (إله)، فإنما يجب أن نعني العلة بإطلاق، أي: العلة غير المعلولة. وهذه العلة واحدة ووحيدة ولا تقبل المشاركة"، ثم يؤكد حقيقة "أنّ العرب القدماء لم يقولوا بتاتاً بألهة بل بإله واحد، وبمبادئ إلهية صادرة عنه يتجلى فيها قانونه في الخلق أو قدرته، وينبغي أن يُقصر وصفها في هذا الحدّ من الإدراك على أنّها (أرباب) تمييزاً له عنها"<sup>2</sup>.

وإننا لنستغرب أن يستطيع بعض الباحثين الغربيين تقديم قراءة صائبة لهذا التعدد، بينما يعجز البعض من باحثينا عن قراءتها بشكل صحيح، كتب "بول بييريه" عن عقيدة التوحيد المصرية يقول: "...

<sup>1</sup> - إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية - الوحدانية والتعدد، ص46.

<sup>2</sup> - أحمد يوسف داوود، الميراث العظيم ، ص149.

حيث تبدو الديانة المصرية متعددة الآلهة ولكنها كانت توحيدية بالضرورة ولا يمكن أن تكون غير ذلك لأن "الإله واحد، وإلا فلا وجود له" .. فالإيمان بآلهة كثيرة هو إنكار للإله ما لم ينظر إليها باعتبارها "رمزية صرفة" فهي أدوار أو وظائف للإله الأعلى المفرد الخفي.. الذي تحوي النصوص الدينية المصرية له العديد من الصفات "التوحيدية" الواضحة. ويرى "فرانسوا جوزيف شاباس"، أيضاً، أن الآلهة المتعددة هي مجرد مظاهر للإله الواحد<sup>1</sup> وهكذا تجد أن هناك عدد غير قليل من العلماء "يؤكدون أن الديانة المصرية هي توحيدية بالضرورة، وأن تعدد الآلهة إنما يرجع فقط إلى تجسيد الصفات المميزة، وخصائص ووظائف الإله الأعلى"<sup>2</sup> وما ينطبق على وادي النيل ينطبق أيضاً على السومريين والبابليين والآشوريين كذلك، بل وينطبق على دين المسلمين بفلسفته الحالية فيفهم الإله العلي (الله) عبر معرفة تعدد أسمائه وتكثر أفعاله، لا غير. فهو الوحدة المتجلية في الكثرة، والتعدد المنضوي في الواحد.

#### رابعاً- إيزيس وأوزيريس هل هما حقاً من الآلهة!؟

إنّ ما قلناه سابقاً في الرد على دعوى تعدد الآلهة عند عرب العراق والشام هو نفسه يدحض دعوى الشرك والوثنية عند سكان

<sup>1</sup>- إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية - الوحدانية والتعدد، ص11.

<sup>2</sup>- إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية - الوحدانية والتعدد، ص12.

وادي النيل، فالشعب واحد، والدين واحد، والأسباب التي أدت إلى هذه الدعوى هي نفس الأسباب.

لا يستطيع أحد أن يتجاهل الإرهاصات التي شهدتها وادي النيل في الألف الرابع قبل الميلاد بولادة حضارة إنسانية، والخروج من حالة التخلف والهمجية بقيادة الملك الصالح "أوزيريس" وزوجته "إيزيس"، وبمعاونة المعلم الرباني "تحوت" وهو النبي إدريس(ع) الذي أحدث ثورة نوعية لأهل تلك البلاد بتعليمهم الكتابة وعلوم الحساب والهندسة والمساحة والعمارة، وهو كغيره من الأنبياء لا بد أنه وظف هذه العلوم في الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد ونشر الأخلاق والفضيلة، فالتوحيد موجود في هذه المنطقة منذ ذلك الحين، كان هو وأوزيريس صاحب الصولجان، وربّ البلاد، وصاحب السيادة والسيطرة، وزوجته إيزيس يمثلون فريقاً ثلاثياً متكاملًا يرجع له الفضل الكبير في إرساء قواعد الحضارة والعدالة وسنّ القوانين الاجتماعية والأخلاقية الراعية لكرامة الإنسان في بلاد وادي النيل وفي غيرها من البلدان، وإتّنا نجد في النصوص التراثية القديمة على لسان إيزيس ما يؤكد ذلك ويشير إلى بعض تلك الإنجازات ودور النبي إدريس(ع) فيها: "إتّني أنا إيزيس، عاهلة البلاد جميعاً، لقد تعلمت على يد هرمز(وهو إدريس)، وابتدعت بالاتفاق مع هرمز الكتابة الشعبية حتى لا يكتب كل شيء بحروف واحدة، لقد سننت

للناس القوانين، وأبرمت ما لا يستطيع البشر نقضه. إنني كبرى بنات كرونوس، إنني زوج الملك أوزيريس وأخته<sup>1</sup>. إنني أنا التي تشرق في نجمة الكلب، إنني أنا التي يسميها النساء (رَبَّة)! ... واخترعت الملاحة... وعقدت بين الرجل والمرأة... وقضيت بأن يحب الأبناء آباءهم، لقد وضعت مع أخي أوزيريس حدًا لأكل البشر، وأريت الناس الأسرار الخافية... لقد أدلت دول الطغاة، وحملت الرجال على حبّ النساء، وجعلت العدالة أقوى من الذهب والفضة، وقضيت بأن يرى الناس الحق جميلًا<sup>2</sup>.

إنّ الدور التعليمي الكبير الذي قام به هؤلاء الثلاثة لم يقتصر على بلاد وادي النيل بل شمل منطقة واسعة حيث كانوا يجوبون الأرض ويؤدون واجبهم في نشر العلم والفضيلة، هذا ما نفهمه من كتابة وُجدت على قبر أوزيريس تقول: "إنّ أبي هو كرونوس، أصغر الآلهة أجمعين(!)، وإنني أنا الملك أوزيريس الذي أدار الحب في أنحاء الأرض كلها حتى بقاع الهند الخاوية، وحتى مناطق الشمال إلى منابع الدانوب، ثم إلى المحيط. إنني أنا الابن الأكبر لكرونوس،

<sup>1</sup> - إن التعبير عن الزوج بالأخ يُقصد به أنه من نفس العشيرة وليس كما ظنّه البعض زواج محارم. وقد أشار القرآن الكريم إلى أخوة القوم أو العشيرة في قوله تعالى: (وَأِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ..)(هود:50)، وقوله: (وَأِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..)(هود: 61) وكذلك: (وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا..)(هود:84).

<sup>2</sup> - أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص559، 560.

وقد ولدت جنيناً من بيضة جميلة شريفة. وليس في العالم مكان لم  
أبلغه، وقد منحت الناس أجمعين ما وجدته<sup>1</sup>.

وهنا كما في باقي البلاد العربية سمى الأولون المعلمين من  
الأنبياء "أرباباً" من معنى التربية التي مارسوها بالتعليم، كما سمو  
أصحاب التشريع والصولجان والسلطة سواء من الملائكة أو الملوك  
"أرباباً" أيضاً ولكن من معنى السيادة والسيطرة، ولم يدرك الدارسون  
الأجانب الفرق بينهما وظنوا أن معنى الكلمتين (المربّي والربّ) واحد  
لاشتراكهما في الجذر، خصوصاً إذا ما علمنا أنّ الكلمات في اللهجات  
العربية القديمة كانت تكتب كما تُنطق أي بدون حروف المد  
الصوتية- كما ذكرنا سابقاً-، فكلمة (رَع) ما هي في الحقيقة إلا  
(الراعي)، ثم جاءت أخطاء الترجمة لتصادر ما تبقى من الحقيقة حين  
ترجموا كلمة (ربّ) بمعنى (إله)! فأَيّ حقيقة تبقى بعد ذلك؟! وأكبر  
دليل على مشكلة الترجمة هو العبارة الواردة في النص السابق  
لإيزيس (إنني أنا التي يسميها النساء ربّة)، ففي الوقت الذي  
ترجمت في كتاب أدولف إرمان هكذا: (إنني أنا التي يسميها النساء  
آلهة) فقد وردت في كتاب الدكتور أحمد داوود بكلمة (ربّة) بدل  
(آلهة)، رغم أنّها منقولة عن نفس الكتاب ولكن بطبعة مختلفة كما  
تؤكدده اختلاف أرقام الصفحات!

<sup>1</sup> - أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص560.

ويشير الدكتور أحمد داوود إلى التضليل الذي طمس الحقائق بسبب أخطاء الترجمة، "فقد فهموا الكلمات الدالة على "رب" (التي كان يستخدمها السوريون بمعنى "سيد") بمعنى "إله". ثم يقول: إن هذا هو ما أشار إليه أيضاً فيلون الجبيلي إذ كتب يقول: "إنه لمن الضروري الإعلان سلفاً، وبكل صراحة، ومن أجل المعرفة الجزئية لجميع ما تلا ذلك، أن أقدم الناس، وبخاصة الفينيقيين والمصريين، الذين كانوا كمرشدين لجميع الناس الآخرين، كانوا يرون أن الأرباب الكبار هم أولئك الذين حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا، أو الذين عمموا الخير، مهما تكن طبيعته، بين الشعوب. وقد دعي هؤلاء محسنين بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها"<sup>1</sup>.

السبب الآخر الذي أربك الفهم وأساءه هو أخذ هذه المعلومات من الأساطير دون تحقيق وتدقيق، ونحن نعلم ما في الأساطير من الحقائق العلمية والأحداث التاريخية التي عرفها الأولون بتعليم رباني عبر أنبيائهم، ولكنها سُكبت في صياغة أدبية ممزوجة بالإضافات التشويقية والمحسنة البديعية لتسهيل حفظها وتناقلها شفويًا عبر الأجيال، علاوة على التعديلات والتغييرات التي أجريت لها خلال رحلتها من مكان إلى آخر وجيلًا بعد جيل، يُضاف إلى ذلك أنها لم تصلنا في نصّها الأصلي وإنما عبر المهتمين بعلم الأساطير من

---

<sup>1</sup> - أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم، ص 90.

الأجانب الذين ترجموها لا حسب ما تريد الأسطورة قوله، وإنما حسبما فهموها على خلفية نظرتهم غير الصحيحة القائمة أساساً على تحريفات لتاريخ المنطقة، منها مثلاً القول بأنّ التوحيد في مصر بدأ بموسى(ع)! وأنّ الحضارات العربية القديمة في مصر أو بابل تعجّ بالآلهة والأوثان كالإغريق والرومان! إذا عرفنا كل ذلك لزمنا التمهيص والتدقيق قبل القبول بالنتائج خصوصاً فيما يتعلق بموضوع التوحيد وتعدّد الآلهة. يقول مجدي كامل فيما يتعلق بأسطورة أوزيريس: "لم يكتب المصريون أسطورة أوزيريس في قصة واحدة. وقد وصلت إلينا عن طريق الإغريق، وجاء في الوثائق المصرية على أنها نصوص دينية، وكان ذلك أولاً في نصوص الأهرام، على أنّ أحداثها قد وقعت قبل كتابة نصوص الأهرام بحوالى ستة قرون، وتعرضت لكثير من التعديلات"<sup>1</sup> فلا غرابة بعد ذلك أن تجد أوزيريس في جزء من الأسطورة في ثوبه البشري كعاهل للبلاد، وفي آخر منها في ثوب مختلف مع الكائنات العلوية الأثيرية في الجنة، وفي ثالث بعد رحيله "يصير أوزيريس سيداً لعالم الأموات، وملكاً على العالم السفلي، ورمزاً للقيامة، وتوكيداً للبعث، وإعلاناً للبشارة بالحياة الأخرى، لا للملوك وأمثالهم، بل للبشر أجمعين" في

---

<sup>1</sup> - مجدي كامل، أشهر الأساطير في التاريخ، ص 134.

أسطورة واحدة تلغي عامل الزمان وتختزل الشخصيات المهمة سواء الحقيقية منها أو المرّمزة في شخصية محلية واحدة!

وبقائل من التركيز والفتنة يمكن للقارئ في هذه الأسطورة أن يفكك هذه الشخصيات ويحدّد الدور الصحيح لشخصية أوزيريس الموصوف بالصالح دائماً، تقول الأسطورة: "وقد كان مولد أوزوريس موضع الاهتمام الكبير من الإله الأكبر (رع) ومناطق الأمل في أن يكون على يديه صلاح البشر، بعد أن أعيا الأرباب الأوائل صلاحهم"، ثم تذكر دوره العظيم في بلاد وادي النيل: "لقد كان سكان وادي النيل أحاداً مستوحشين لا يكفون عن التنازع والتناحر فيما بينهم، وكانوا لا يجدون - إلا بشق الأنفس - ما يسد أرماقهم من الصيد ومن نبات الأرض، فجمع شتاتهم في قبائل وطبقات، وعلمهم الزراعة التي كفلت لهم وفرة الطعام، وحمتهم غائلة الجوع الذي كان يدفعهم أحياناً إلى أكل بعضهم البعض، وابتدع لهم آلات الفلاحة والحرث، ليكثر من الأرض محصولهم، فكان مما استنبتوه - بفضل إرشاده - القمح والشعير والعنب، فاتخذوا من القمح الخبز الذي أصبح - منذ ذلك الحين البعيد - قوام الغذاء للشعب المصري.."، ولم يكتف بذلك بل اتجه إلى الجنوب وقام بمزيد من الاكتشافات وهدى الناس إلى الكثير من الصناعات: "ثم وجه أوزوريس اهتمامه بعد الدلتا إلى الجنوب، فكان من فتح الوجه القبلي أن كشف عن مناجم

الذهب والنحاس، فأخذ في هداية الناس إلى الصناعات الأولى، فعلمهم طرائق الكشف عن عروق المعادن في الأرض وصوغ الذهب والنحاس، وصنع الأسلحة للدفاع عن أنفسهم من الحيوانات الضارية فضلا عن اتخاذ ما تدعو إليه الحاجة من الأدوات وآلات الزراعة. وفي أثناء ذلك بدأ المرحلة الثالثة فأسس المدن، وأقام النظم، وشرع القوانين، وعلم الناس ما يجب للآلهة من تكريم، واتخذ قاعدة للملك جعلها المركز الديني والسياسي والفكري. وقد كان في مقدمة مساعيه الثقافية أن عهد إلى تحوت - (عند اليونان هرمى وهو عطارذ إله العلوم والفنون) - أن يجعل للمصريين كتابة يتخذونها للتدوين تيسيرا للتعليم ونشر العلوم والحكمة والفنون، فاخترع الحروف الهيروغليفية، وكان فضل التدوين أن تثقفت العقول وتهذبت النفوس، فتهيا للناس السمو على شواغل الحياة اليومية ومتطلباتها، والتطلع إلى السماوات للاشتغال بأسمى العلوم وهو علم النجوم، مما أتاح لهم مجاوزة حدود مصائرهم الأرضية والعروج بأرواحهم نحو الباب المفتوح على اللانهاية والحياة الأخرى الأبدية عليهم. وإلى جانب أوزوريس قامت "إيزيس" أخته وزوجته معا تعينه أحسن العون في سعيه مما جعلها أهلا لأن يقترن اسمها على الدوام باسمه، فبينما كان الزوج يرسى قواعد الدولة، كانت هي مقبلة على تحقيق كيان الأسرة بما سنته للزواج من سنن

وروابط. ثم هي التي علمت أفراد الأسرة طحن الحنطة وعمل الخبز منها، كما زودتهم بالمناسج وغيرها من الوسائل لصنع ما يكتسي به الناس من اللباس وخاصة الكتان. واتخذت إيزيس لمعالجة أمراضهم وتخفيف أوجاعهم بعض الوسائل الطبية والسحرية، وكذلك علمتهم السكنى في الأبنية وضرورة تمهيد الطرق وأمثال ذلك مما تقتضيه الحياة الاجتماعية والعمران. وكان أوزوريس -في أثناء ذلك- قد شمل بعنايته تنظيم العبادات الدينية فوضع شعائرها وطقوسها. وهكذا لم ينقض وقت طويل حتى ظهرت آثار هذه الإصلاحات كلها في ازدهار الحضارة المصرية، وكعادة القادة الصالحين المصلحين من العرب الأوائل لم يقتصر "أوزيريس" في مشروعه الحضاري على أرض وادي النيل، بل أمتد خيرُهُ إلى الآخرين ليمنحهم ما لديه من العلوم وفضائل الأخلاق، ولعل هذا ما يفسر وجود اسم "هرمز" -وزيره الكاتب ومرافقه في هذا الفتح العالمي- في أكثر من بقعة من بقاع الأرض: "ولما أن اطمأن أوزوريس إلى ازدهار الحضارة في مصر بقسميها شمالا وجنوبا، اعتزم الخروج لنشر هذه الحضارة في غير مصر من أقطار الأرض. فأقام إيزيس على الحكم في مصر نائبة عنه ومضى هو للفتح العالمي ومعه وزيره الكاتب "تحوت" حامي العلوم والفنون والحفيظ على القوانين والمرموز إليه بطائر "أبو منجل" "إيبيس"، واصطب

كذلك حليفه من أهل القتال وهما أنوبيس الخادم الأمين في السراء والضراء، الذي يحسن الدفاع والمطاردة، المرموز إليه هنا بالكلب السلوقي الضخم الأسود، وكذلك الذئب المقاتل المغوار "أب-واوت". ولكن الحملة مرت بسلام، فهي لم تتحرك بدافع الانتقام، بل لإقامة الحضارة ونشر المدنية. فلم يعتمد فيها أوزوريس على السلاح، بل كان يأخذ الخلق بالحسنى والإقناع، حتى دانوا له أجمعين، وانتظمت أمورهم، واستتب النظام في سائر البلاد، وعم الخير العباد في الكون كله"، ثم ينقصد أوزيريس دوراً آخر لشخصية أخرى في حقبة تاريخية مختلفة، ولكن الأسطورة تواصل سرد الأحداث بأسلوب قصصي وكأنها وقعت متسلسلة في حقبة زمنية واحدة فنقول: "عاد أوزوريس عودة الظافر المنصور من حملته خارج مصر لنشر الحضارة والمعرفة في أقطار العالم المعمور. ويبدو أن أخاه الشرير (ست) كان يتابع هذا النصر تلو النصر، وقد أكل قلبه الحسد لأوزوريس وأوغر صدره، فهو أمام هذا المزيد من التوفيق قد امتلأ ضغينة وحقداً على أخيه بما ليس بعده من مزيد. ولا غرو فقد كان (ست) على النقيض من أوزوريس، ومن أجل ذلك كان الأول من حيث الرمز الطبيعي ممثلاً للنيل المخصب بتربته المخضرة الوافرة الإنتاج، أي رمز الإخصاب، ومن ثمة كانت خلاصة القول فيه: أنه ممثل للخير عامة. وكان الثاني ممثلاً للصحراء القاحلة برمائها

المحمرة المحرقة، وأعاصيرها الثائرة المهلكة، فهو رمز العقم، ومن ثمة كانت خلاصة القول فيه: أنه ممثل للشر عامة، فلم تكن مندوحة- عاجلا أو آجلا- من قيام الحرب بين الشقيقين، الإله الأسمر المخضر أوزوريس والإله الأحمر المصفر (ست)<sup>1</sup>، ويكفي قليلٌ من التأمل في بعض الكلمات لفك شفرة هذه الأسطورة، فـ"ست" هو ممثل الصحراء المحمرة المحرقة والإله الأحمر المصفر في إشارة واضحة إلى النار التي منها خُلق، وأعاصيرها الثائرة المهلكة وهي الشهوات، فهو الشيطان الذي أكل قلبه الحسد على الإله الأسمر (آدم)، ممثل الخير عامة، (فعمد إلى حيلة غادرة أوقعه في حبالها أثناء وليمة دعاه إليها) وهي المعصية الأولى، ولسنا هنا بصدد فك رموز الأسطورة كاملة وإثما للدلالة على تداخل الأحداث والشخصيات في الأسطورة الواحدة مما يشوش الفهم ويربكه فيخرج القارئ بنتائج غير صحيحة.

### خامساً- مكانة المعلمين

لقد كان للمربي والمعلم مكانة خاصة عند العرب، كانوا ينظرون إليه بعين القداسة، وكانت مقولتهم المشهورة: "من علمني

<sup>1</sup> - انظر: مجدي كامل، أشهر الأساطير في التاريخ، ص 135-138.

حرفاً كنت له عبداً" تكشف عن المقام السامي الذي تبوأه المعلم في النفوس، وذلك لما كان يضطلع به من مسؤولية تعليم الناس العلوم المختلفة التي تنفعهم في معاشهم ومعادهم، ودعوتهم للتخلي بالأخلاق الفاضلة، وتحرير النفس من أسر الشهوات والطواغيت، والعمل على إرساء قواعد العدالة الاجتماعية ومساعدة الفقراء والمحتاجين والدفاع عن المظلومين حسبما تقتضيه حالة كل مجتمع آنذاك، تلك كانت مهمة الأنبياء والرسل والصالحين المصلحين من أتباعهم طوال التاريخ الإنساني يؤدونها انطلاقاً من شعورهم بالواجب لا يبتغون من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً، ولهذا نالوا كل ذلك التقدير لما أنجزوه من تغيير للواقع وساهموا به في بناء الحضارة، فلولا وجود المعلمين لأسنت الحياة وكان الناس مجرد قطع وهمج يهيمون كالبهائم، فالمعلمون هم أعمدة الضياء التي قام عليها صرح الحضارة الإنسانية، فالحضارة خلقٌ وإبداع، وتعطيلُ العقل هو عودة إلى البهائية والتخلف.

وكان من شأن هذا التعظيم وهذه النظرة القدسية للمعلم أن يبقى أثرها ممتداً عبر التاريخ لأحقاب طويلة بعد رحيل هؤلاء المعلمين، وأن يعمد الناس إلى ابتكار الأساليب التي تحفظ ذكراهم حية في النفوس لتبقى تعاليمهم في منطقة الشعور والممارسة، وكان منها أن جعلوا من صورهم مُذكِّرةً لهم بهم، فعملوا لهم تصاوير مجسّمة

وتبثوها في الأماكن المرتفعة كنصب تذكاري، ومنها أيضاً تسمية المواقع الجديدة التي كانوا ينتقلون إليها شرقاً وغرباً بأسمائهم لنفس الغرض، ولم يكن صنع التماثيل محظوراً في شرائعهم، فقد كان الجن يعملون لسليمان(ع) ما يشاء من محاريب وتماثيل، قيل إنها صور السباع والطيور الجارحة يجعلونها على كرسيه ليكون أهيب له، "وقال ابن عباس: كانوا يعملون صور الأنبياء والعباد في المساجد ليقتدى بهم"<sup>1</sup> وقد كان في الكعبة صور وتماثيل، منها تمثال إبراهيم وإسماعيل، ومنها صورتا العذراء والمسيح<sup>2</sup> وقد ارتبطت هذه التماثيل والصور على الدوام بدور العبادة سواء بوضعها فيها أو بالاستفادة من مقابر أولئك المعلمين المصلحين وتحويلها إلى أماكن للعبادة.

وإذا ما قمنا بوضع الصورة في إطارها الصحيح فإننا نجد أن ما كان يفعله السابقون لا يخرج عما يفعله المؤمنون اليوم من زيارة لمساجد الأولياء والأضرحة لتقديم التحية، والصلاة والدعاء، وللتعبير عما يكتونه لهم من عظيم الولاء والتقدير والتبجيل والذي قد يحسبه الناظر إليه من خارج الدائرة أنه عبادة لهم، وإذا كان ثمة تبرير لهؤلاء الناظرين غير المبصرين في اتهام السابقين بعبادة الأولياء لوجود التماثيل، فلا عذر لهم اليوم في ذلك لعدم وجودها، بعد أن

<sup>1</sup> - الطبرسي، مجمع البيان، ج8، ص204.

<sup>2</sup> - الطباطبائي، الميزان، ج3، ص362.

حرّمت الشريعة صنعها وشدّدت عليه خصوصاً في بدايتها لقرب عهدهم بالوثنية خشية استصحاب الحالة السابقة أو حصولها في المستقبل، كما حصل في بعض مراحل التاريخ حين طغت قداسة المعلمين على عقيدة التوحيد فعبدوهم، في هذه المرحلة يأتي من يذكر الناس بالتوحيد، كما جاء نوح(ع) إلى قومه منذراً إياهم لما انحرفوا عن التوحيد (وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) (نوح:23)، وما كانت هذه الخمسة إلا أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا نصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم حتى هلك أولئك القوم وجاء من بعدهم قوم آخرون فعبدوها<sup>1</sup>.

### سادساً - مكانة الآباء

إنّ من عيوب الباحث افتقاره للدقة العلمية عند معالجة بعض الظواهر، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانيّة والحقائق التاريخيّة الممتدة عبر الماضي لآلاف السنين، حيث يصعب إجراء البحث العلمي النزيه، وتكون النتيجة ضياع الحقيقة وتشويهها، ومن ذلك ما تُسبب إلى العرب الأوائل من عبادة الأجداد بعد أن عجز الباحثون الأجانب عن استيعاب ظاهرة اعتزاز العربي بنسبه والمحافظة عليه، ذلك الاعتزاز الذي لم يخضع في يوم ما لمعايير

<sup>1</sup> - الطباطبائي، الميزان، ج20، ص35.

عرقية، وإّما خضع دوماً للمعايير الأخلاقية والإنسانية، فقد كان العرب الأوائل يعترفون بوحدة الأصل البشري والتي لخصها أخيراً الحديث النبوي الشريف: (كلكم لآدم وآدم من تراب)<sup>1</sup>، ولهذا لا تجد في تراثهم أي أثر لتمييز عرقي بين البشر.

يقول الدكتور أحمد داوود: "لقد كان شعور العربي بالتفوق نابعاً من إدراكه لمضمون هذا التفوق الإنساني في التعامل مع الآخر. لقد وعى ذلك منذ آلاف السنين، أبدع خلالها مجموعات من النظم والتشاريح مارسها في الواقع، في الوقت الذي كانت تحيط به قبائل وشعوب لم تتجاوز درك الهمجية مما جعله يدفع الثمن جد فادح، ونهضت في نفسه إرادة أن يكون رائداً ومعلماً، وأن يهدم بالسيف الحدود أمام الكلمة المضيئة، وأن يغزو بتلك القيم أذهان العالم القديم كله. ومن هنا نبع إيمانه القديم بأنه صاحب رسالة إلى العالم، وأثبت ذلك عملياً أكثر من مرة وعلى مدى التاريخ.

إن اهتمامه بالنسب لم يكن إلا من قبيل تعلقه بمكارم ذلك النسب الإنسانية التي تتحدث بها العرب. فكما أن اهتمامه بنسب فرسه يثبت له أنه جواد (معطاء)، وأنه كريم (معطاء)، فإن اهتمامه بنسبه هو كان من قبيل هذا الجود وهذا الكرم، حتى صارت صفة

---

<sup>1</sup> - ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص34.

الكرم ملازمة له ولفرسه معاً، فيقول: فرس كريم، وفارس كريم  
النسب"<sup>1</sup>.

فالإنسان العربي كان يختار من بين آبائه وأجداده أولئك  
المتميزين مناقبياً فينتسب إليهم، وامتد هذا العرف حتى أيام الرسول  
محمد(ص) الذي تفصله عن جده هاشم عدة آباء فكان ينتسب إليه لما  
تمتع به من أخلاق وعُرف عنه من نصرة للمظلوم وغوث للفقير  
حتى أنه كان يهشم الثريد باللحم ويقدمه إلى الفقراء بمكة ومنه سُمي  
هاشماً.

وفي معرض رده على هذا السؤال: هل كان العرب الأموريون  
وغيرهم يعبدون أولئك الأجداد بحق، ويجعلونهم في مرتبة الآلهة؟  
يقول الدكتور أحمد داوود: "إنّ كل الدلائل تشير أنّ لا... إنّ تعظيم  
وتقدّيس الآباء الذين يتفوقون في مجال ما قد يكون فيه خير للبشر، أو  
يمتازون بشمائل إنسانية وأخلاقية معينة، تصلح لأن تتخذ قدوة للناس  
جميعاً، كانوا يحتلون مراتب خاصة، وتبنى لهم قبور خاصة متميزة،  
أو مقامات، وتقدم عندها الذبائح وتوزع على الفقراء تعبيراً عن  
الافتداء بإحسانهم وبإنسانيتهم. ثم تطورت تلك العادات بعد استغلالها  
من قبل أناس معينين وجدوا فيها مكاسب خاصة معينة، فكرسوا  
أنفسهم لخدمة مقام هذا الجد أو ذلك، يذبحون الذبائح بالطرق التقليدية

<sup>1</sup> - أحمد داوود، تاريخ سوريا القديم - تصحيح وتحريير، ص115.

الصحيحة، وقيمون مراسم الصلاة، ويأخذون النذور من أموال أو حلي أو زيت أو خمر أو أضحيات، ويشرفون على التوزيع، ويضفون على تلك المقامات مواصفات معينة متميزة، تحقيقاً لأهداف خاصة يسعون إليها: كأن يجعلونها تتفوق على غيرها، فتجذب الناس إليها أكثر من غيرها، ثم يضيفون عليها نوعاً من الأعمال الخارقة والمعجزات ويجعلونها تتخصص بأعمال معينة كأن تشفي مرضى العيون أو المشلولين، أو تجعل العواقر من النساء ينجبن الأولاد..."، ثم يضيف أن الظاهرة هي نفسها اليوم منتشرة في شتى بقاع الوطن العربي.. "وهذا يشجعنا أكثر على القول بأنه ليس صحيحاً ما يقال عن العرب الأقدمين من أنهم كانوا يعبدون آباءهم، إلا إذا صح ذلك على العرب اليوم مسيحيين ومسلمين"<sup>1</sup>.

لقد عبّر العرب الأقدمون عن اعتزازهم بالمتميزين من أجدادهم بالاحتفاظ بأسمائهم عبر إطلاقها على الأبناء - كما نفعل اليوم - وكان القصد من ذلك هو الاحتفاظ بمناقب صاحب الاسم والتذكير بأفعاله الخيرة، لقد كان العرب ينظرون إلى هؤلاء الأجداد نظرة التقدير والإجلال، الأمر الذي فسّره غيرهم بجهل أو بقصد بما دعوه (عبادة الأسلاف)!

---

<sup>1</sup> - أحمد داوود، تاريخ سوريا القديم - تصحيح وتحرير، ص 270.

## \* انحراف الكهنة

إنّ ظاهرة انحراف بعض الكهنة ورجال الدين، في بعض منعطفات التاريخ، ساهمت في استمرار حالة الشرك وعبادة الآلهة المتعددة عند أقوامهم. صحيح أنّ انحرافهم لم يكن عقائدياً في أصله وإّما كان انحرافاً سلوكياً أدى في نتيجته إلى تخليهم عن القيام بدورهم الصحيح في الأخذ بأيدي الناس نحو الصراط المستقيم والعقيدة الحقّة حيث اشتغلوا بأمور الدنيا عن الدين، فقد كان كهنة المعابد يحتفظون بالأسرار الدينية والحقائق الربانية والتوجيهات العبادية في المعابد، ولم يكن متاحاً لعامة الناس معرفتها إلاّ بواسطتهم، وكان على الكهنة أن يفسّروا النصوص الدينية الأصلية للناس بأسلوب سهل عليهم فهمه، الدور الذي لم يؤدّه الكهنة كما ينبغي، بل استغلوا مكانتهم الدينية في أعين العوام لأغراض شخصية، فقد كان منصب الكاهن - كما يقول (ديورانت) - "ينقل في الواقع إن لم يكن بحكم القانون، من الأب إلى الابن، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن، بفضل تقوى الشعب وكرم الملوك السياسي، أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها. وكان الكهنة يحصلون على طعامهم وشرابهم من القرابين التي تقدم للآلهة، كما كانت لهم موارد عظيمة من إيراد أطيان الهياكل، ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية. وإذ كانوا معفين من الضرائب التي

تجبي من سائر الناس ومن السخرة والخدمة العسكرية فقد كان لهم من المكانة والسلطان ما تحسدهم عليه سائر الطبقات"<sup>1</sup>.

وهذا ما أطلق العنان لهؤلاء الكهنة لممارسة ما يعزّز هذا الوضع ويكرّسه لولا تدخل السلطة السياسية أحيانا لوضع حدّ لهذا الاستغلال، كما فعل (أوروكاجينا) الحاكم الصالح الذي يخاف الآلهة- كما يصفه المؤرخ السومري<sup>2</sup>- وهو ملك (لكش) الذي "أصدر المراسيم التي تحرم استغلال الكهنة لكافة الناس، وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب "ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولي على ضريبة من الفاكهة" وخُفضت رسوم دفن الموتى إلى خُمس ما كانت عليه، وحرّم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية"<sup>3</sup>.

اشتغل الكهنة بدنياهم عن خدمة الدين، بل وظّفوا الدين لخدمة الدنيا فتنافسوا في إسباغ الصفات الإلهية الكثيرة على إلههم بغية دفعه لتصدّر باقي الآلهة كيما يصبح إلهاً عاماً للبلاد وليس إلهاً محلياً فقط، لما يؤمّته ذلك من نفع مادي أكثر يأتي من القرابين والندورات والهدايا التي تُقدّم لآلهة هذا المعبد أو ذاك، وطالما كانت المصلحة

<sup>1</sup>- ول ديورانت، قصة الحضارة، مج1، ج2، ص161.

<sup>2</sup>- صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص110.

<sup>3</sup>- ول ديورانت، قصة الحضارة، مج1، ج2، ص17.

عند هؤلاء المنحرفين هي الأهم وليس المبدأ كانت غايتهم استرضاء العامة بالسكوت عن تصحيح انحرافاتهم وحتى العقائدية منها، كما حدث حين زادت قداسة الأولياء الصالحين في نفوس العامة لتصل بالتدريج إلى درجة التأليه، أو حين طغت الرموز المادية التي استخدمها الأولون للتعبير بها عن معاني كبيرة، كالقمر - مثلاً - وكانوا يقصدون به النور الإلهي، أو الشمس كرمز لواهب الحياة أو حتى الثور كرمز لعقيدة الخصب والخير، طغت هذه الرموز المادية على المعنى المراد منها، ومع تقادم الزمان أخذ العامة بظاهاها بينما غاب المعنى، وغاب معه دور الكهنة في تحمل المسؤولية وتصحيح المعتقدات الخاطئة ورسم الصورة الواضحة للعقيدة بالطريقة التي يستوعبها الناس، وكما يقول أدولف إرمان: "وجه علماء الكهنة المتفقيين في الدين نفس العناية إلى قصص الآلهة فنظموه ولكن ليس بالطريقة التي تقربه إلى الأذهان، فما ارتبط منه بحياة الشعب أهملوه وجعلوا منه موجزا مشوّهاً، ثم سعوا إلى تحقيق ما بدا لهم مهماً محاولين تفسير ما أطلق عليه من أسماء، ووجدوا ضالتهم دائماً فيما نسبوه إلى الإله من أقوال وأعمال"<sup>1</sup>.

وليس خافياً ما فعله الكهنة اليهود من تحريف في العقيدة أنكره عليهم أنبياءهم، وإنّ توراتهم لتشهد عليهم، إذ تضمنت الكثير من

<sup>1</sup> - أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص148.

أقوال أنبيائهم في وصف انحرافاتهم، منها مثلاً: "الكهنة لم يقولوا: أين هو الرب؟ وأهل الشريعة لم يعرفوني، والرعاة عصوا علي، والأنبياء (أي المتنبئون الكذبة) تنبأوا ببعث وذهبوا وراء ما لا ينفع" (أرمياء 8: 2).

إنها مسئولية العالم العارف أن يظهر علمه حين يجهل الناس، ويقودهم إلى الله سبحانه في مسيرتهم الإيمانية، وهذا ما فعله المعلمون الأوائل من الأنبياء والرجال الصالحين على مدى التاريخ فكانوا بحق علامات مضيئة أنارت تاريخ البشرية من ظلمات الجهل والتخلف فاستحقوا بذلك أعظم التقدير والإجلال.

### \* إشكال قرآني ..

وفي الختام قد يرد البعض على مقولة وجود التوحيد وتواصله منذ القدم بالاستشهاد بآيات القرآن الكريم التي تذكر نماذج كثيرة للشرك وعبادة الأوثان منذ نوح(ع) مثل قوله تعالى:

(وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ إِلَهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوعَاً وَلَا يَعُوْثَ وَيَعُوْقَ وَنَسْرًا) (نوح: 23).

(إِذْ قَالَ لِأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ النَّمَاتِئُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) (الأنبياء: 52).

و(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) (العنكبوت: 17).

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (الأعراف:138).

وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (التوبة:31).

وَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (الأنبياء:98).

وَقُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (فصلت:9).

وبوجود الأصنام على ظهر الكعبة في الجاهلية قبل البعثة حتى بلغت 360 صنماً تُعبد من دون الله.

كما يؤكّد القرآن في الكثير من آياته بأن (أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (الرعد: 1)، (وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران:110)، (وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) (الروم:42)!

وفي الرد على ذلك نقول: إنّ منطق الآيات لا ينفى وجود الموحّدين حيث قالت: أكثر الناس ولم تقل: كلهم، مما يعني وجود فئة مؤمنة وإن قلت. ثم إنّ هناك نوعين من الانحراف أصاب السابقين،

وهما إلى الآن سبب الانحراف عن جادة الحق: انحراف عقائدي وهو الشرك، وانحراف سلوكي وهو الظلم سواء وقع على النفس أو الآخرين. وبينهما علاقة تكون واضحة مرة، لما بين الشرك والظلم من تلازم، نتيجة غياب الرقابة الذاتية (الإيمان) وهذا ما حذر منه لقمان الحكيم ابنه حينما قال له وهو يعظه: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان: 13)، ومرة أخرى تكون العلاقة بينهما غير واضحة لخفاء صورة الشرك، فالإنسان في هذه الحالة مؤمن بالله ومتعبد له حيناً، وظالم لنفسه ولغيره أحيان كثيرة نتيجة ضعف الإيمان، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف: 106).

فإذا ما جمعنا هذين النوعين معاً كانت المحصلة كالتالي:

(... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (البقرة: 243).

(... وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران: 110).

(... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) (الأنعام: 111).

(... وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (الأنعام: 116).

(... وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف: 17).

(... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (هود: 17).

(... وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) (النحل: 83).

في هذا الإطار نفهم وصم القرآن الكريم لأكثر الناس بالكفر والفسق والجهل والضلال، على أن أغلب الآيات لا تتحدث عن أكثرية مطلقة، وإنما أكثرية ضمن حقبة زمنية محددة أو فئة معينة متحدث عنها.. كقوله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) (الروم: 42) فليس المقصود بالضمير في (أَكْثَرُهُمْ) هم الناس مطلقاً منذ آدم حتى وقت نزول الآية، فالآية بصدد الدعوة إلى السير في الأرض والتفكر في عاقبة الذين من قبل، أي عاقبة المكذبين والمجرمين والمفسدين والظالمين والمنذرين كما في آيات أخر.. فالكلام إذن عن الذين أهلكوا من قبل، هؤلاء كان أكثرهم مشركين.

وكان للشيطان اللعين دوره الأكبر في رسم خطوط الانحراف والصد عن عبادة الله الواحد منذ أن طُرد من الجنة حيث أعلن حينها عن برنامج عمله القادم (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ \* ثُمَّ لَأَنْتَبِهَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف: 16، 17)، القائم أساساً على التزيين والتضليل وتسويق الأمانى مستغلاً غرائز الإنسان التي

تشده للاحلال إلى الأرض جاعلاً منها طابوراً خامساً يخرس صوت  
القطرة والعقل، فراجت بضاعته عند الناس وصدق ظنه فيهم، إلا  
عباد الله منهم المخلصين وأولي البقية الذين ينهون عن الفساد في  
الأرض فقد ظلوا مستمسكين بحبل التوحيد ومتواصين به، جاهدين ألا  
تنطفئ شعلة الإيمان التي أوريث منذ آدم وإن مثلوا قلة في عصور  
كثيرة. فالآيات القرآنية التي تتحدث عن شرك السابقين وعبادتهم  
الأوثان واتخاذهم أرباباً من دون الله سبحانه، إنما تعبر عن محطات  
الانحراف وهو في أعلى صورته، وهي المحطات التاريخية التي بُعث  
فيها الأنبياء والرسول للتذكير بالإله الواحد الذي لا شريك له، لذلك  
كانت أولى كلماتهم إلى أقوامهم: (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ  
غَيْرُهُ) (الأعراف: 65)، فالدعوة واحدة والمخاطب بها هي هذه الأمة  
الواحدة منذ آدم وحتى يومنا هذا، هذه الدعوة أجملتها آية الأنبياء  
بقولها: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء: 92).

## الخاتمة

لم يكن الإنسان بعد نفخ الروح فيه يوماً ما فاقداً القدرة على الاتصال بالله سبحانه، بعد أن أودع الله فيه البرنامج (الفطرة) المعدّ والموجّه تحديداً لإقامة هذا الاتصال، ويبقى الخيار بيد الإنسان في تفعيل هذا البرنامج فهو من يقرر إقامة الصلة أو قطعها ويحدد قوتها من ضعفها، فهو الكائن المكرّم، حامل الأمانة الإلهية، والمخاطب بالتكليف والمسئول عما أعطي وخوّل التصرف فيه.

لقد أريد لهذا الإنسان ضمن المشروع الرباني أن يكون خليفة الله في الأرض بحق، أريد له أن يكون المثل الرباني الذي يقول للشيء كن فيكون، ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه فغدا إنساناً ناقصاً، ولا يزال مشروع الإنسان الخليفة قائماً لم يتوقف منذ أن باشرته الملائكة المدبّرة وهيأت له كل أسباب التكامل، تسديداً لإرادة كل السائرين على هذا الطريق لبلوغ هدفهم في تحقيق الكمال للإنسانية، وقد أثمرت تلك الجهود على مر العصور نماذج حيّة للإنسان الكامل، نجدها في الأنبياء والرسل الذين حملوا الأمانة وبذلوا غاية المجهود في سبيل تحقيق رسالة السماء المتمثلة في تحرير الإنسان وإخراجه من حالة الخلود إلى الأرض، وجعله يتبوأ المقام السامي الذي خُلِق له، مستعيناً بطاقات عقله الجبارة ليكون بذلك الإنسان الخليفة.

وظل صراع الخير والشر محتدماً، وخط التوحيد موصولاً  
 بالإنسان الأول لم ينقطع، يتسع حيناً ويضيق حيناً آخر، بفعل دسائس  
 الشيطان الذي أعلن نفسه عدواً للإنسان منذ اللحظة الأولى، وآلى  
 على نفسه تغيير خلقته وإفساد فطرته: (...وَقَالَ لَاتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ  
 نَصِيبًا مَفْرُوضًا\* وَلَأُضِلَّهُمْ ولَأَمْنِيَّتَهُمْ ولَأَمْرَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ آدَانَ النَّاعِمِ  
 ولَأَمْرَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ)(النساء: 118، 119) في مناهضة  
 صريحة وجريئة لإفشال هذا المشروع الرباني، فكان لا بد من  
 المجاهدة والكدح للمحافظة على تلك الصلة الروحية خالية من  
 الشوائب.

وقد حافظت أمتنا في فترات طويلة من تاريخها القديم على  
 عقيدتها وإيمانها بالله الواحد الأحد، يدل على ذلك الكثير من  
 نصوصهم الصحيحة المثبتة قبل آلاف السنين، كصحف آدم (الكنز  
 العظيم) للمندائيين، ونصوص الحكمة عند السومريين وفي بلاد وادي  
 النيل، وسائر العلوم الربانية التي جاء بها الأنبياء العظام وانطلقوا بها  
 من المركز يجوبون سائر البقاع، يلقنون الناس أسباب المدنية  
 والتحضر ويعلمونهم طرق الزراعة وصناعة وسائل الإنتاج  
 وينظمون علاقاتهم الاجتماعية في نقلات حضارية مضيئة شهدها  
 التاريخ هنا وهناك، فهم من علم البشرية الاستقرار بتكوين نظام  
 الأسرة والزراعة والكتابة والفلك والحساب والهندسة والعمارة، ومنهم

انتشرت كل تلك العلوم لتشمل العالم كله بجهود المربين والمعلمين  
المخلصين، ولولا ذلك لأسنت الحياة!

ولكن النظرة الضيقة للدين اليوم، وعدم التفتح الذهني لقبول  
الحقائق كما هي، والتسليم دون غربلة وتمحيص بصحة الكثير من  
الأغاليط التي دُوِّنت بشأن تراث السابقين وأساطيرهم، كل ذلك حال  
دون رؤيتنا للحقيقة الكبرى التي عرفها الأولون وآمنوا وبلغوا  
الآخرين بها، وهي أنّ الله واحدٌ لا شريك له، وأنّ دينه واحد، وأنّه  
فطر الإنسان على معرفته منذ أن خلقه، وتعهده بالهدى ولم يتركه  
سدى.

فكان لا بد من غربلة هذا التراث وقراءته من جديد قراءة تعيد  
رسم الصورة لتتطابق بمضمونها الصحيح، إنّ أريد لهذه الأمة أن  
تنهض وتتعاوى من أدوائها وتستعيد الثقة بنفسها وتتواصل مع ذاتها  
والعالم من حولها، وتأخذ موقعها الريادي في الحياة، لأن ما قيل لها  
من أنه شرك ووثنية وآلهة متعدّدة هي قراءة خاطئة للنص الذي لم  
يُكتب ليقرأه الآخرون فضلا عن أن يترجموه، وكان الأولى بقراءته  
هم من كُتِبَ بلغتهم لأنهم الأقدر على فهمه والأقرب إلى استيعابه،  
كما فهمه الذين ردّوا على الرسول(ص) دعوته بوصفها (أساطيرُ

الْأُولَئِنَا كَتَبْنَا فِيهَا ثَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) (الفرقان: 5)، لَمَّا وجدوا بين دعوته وبينها من الشبه الشديد في العلوم والتعاليم<sup>1</sup>.

إن إعادة قراءة التاريخ، ومحاولة فهم التراث بات مطلباً ضرورياً، لأنه قراءة لقصة الإنسان، تلك القصة التي تكشف عن يد الرحمة الربانية التي امتدت لرعايته منذ خطواته الأولى على الأرض بما خطت له من طريق الهدى، ولم تتخل عنه أبداً بل واصلته بالأنبياء والرسل في محطات الضلال التي كانت تهدد مسيرته الإيمانية، وبذلك راکمت له إرثاً ضخماً من تاريخ ومواقف الأنبياء في دعوتهم لعبادة الله وحده، يزخر به القرآن الكريم مع دعوة صريحة لتقصي الحقائق على الأرض بالسير فيها للنظر والاعتبار (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (النمل: 69).

\* وأخيراً لنا كلمة..

إذا جاز لنا القول أنّ الكفر ملة واحدة وإن تعددت طرائق الكافرين وسبلهم، لاشتراكهم في محاربة عقيدة التوحيد، فكيف لا يجوز لنا أن نقول: أنّ الإيمان ملة واحدة كذلك، ونجمع المؤمنين في عنوانهم العام وهو الإسلام؟! أيكون دين الله هو المفرق بين المؤمنين

<sup>1</sup> - انظر بحث: الأسطورة - توثيق حضاري، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

به لاختلاف شرائعهم؟ أم يكون الدينُ هو مَنْ يفرِّق - حسب فهومات بعض معتنقيه- بين أهل الشريعة الواحدة بحيث يكرِّر بعضهم بعضاً، ويحلّ بعضهم دماء بعض؟! ألا يكشف ذلك عن خللٍ جسيم في فهم الدين ومقاصده النبيلة؟ كيف ندّعي عالمية الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان وهو لمّا يستوعب المنتمين إليه واختلافاتهم؟ أم كيف يمكن لدين الله أن يظهر على الدين كله ولو كره المشركون وهو لمّا يظهر في نفوس أصحابه المؤمنين به؟ أيكون الخلل في الدين أم في المتدينين؟ أين موقع الدين اليوم من الفطرة الإنسانية والله سبحانه يقول: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (الروم:30)؟ ولماذا حصل هذا الطلاق البائن بينهما؟! إنَّ السبب يكمن حتماً فيما ذكرته الآية في ذيلها: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم:30) إنَّه الجهل بالحقيقة، وما يقود إليه من جهل بالدين ومقاصده الشريفة بالضرورة، فنحن نقرأ قول الله سبحانه إلى رسوله الكريم(ص): (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء:107)، ولكننا لا نجد لهذه الرحمة من صدى في حياتنا نحن فضلاً عن العالمين!

فأين فينا مصاديق قوله تعالى: (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (آل عمران:84)؟ وأين تقع هذه الآية من نفوسنا وعقولنا؟ وكيف نترجمها في حياتنا اليومية؟ ما هو الذي آمنا به مما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون دون استثناء؟ فالإيمان في هذه الآية مما لا يمكن تجزأته، كما أن الآية اللاحقة: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(آل عمران:85) لا يمكن فصلها عن سابقتها، فالإسلام المتكلم عنه في هذه الآية هو نفسه الموجود في معنى قوله: (وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)، وليس هو الشريعة الخاتمة بالخصوص، ومن يفهم غير ذلك يقع في تناقض يترفع عنه القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالقرآن كما لا يفرق بين الأنبياء لا يفرق أيضاً بين أتباعهم إلا من حيث التزام الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح لفرز الصادق في الاتباع من المدعي وذلك في مثل قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)(المائدة:69).

إنّ الإيمان بما أنزل على كل الأنبياء والرسول السابقين هو إيمان بوحدة المصدر، وبوحدة الخط التوحيدي الذي يجمع بين هؤلاء، وأي تفريق بينهم هو هدم لهذا البناء المتكامل ونسف للإسلام من أساسه وهو التوحيد.. وحدة الله ووحدة الأمة الواحدة، فلا غرابة

بعدئذ أن تلخص الآية: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا  
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ  
تَتَّقُونَ)(الأنعام:153) تلخص المشتركات الإنسانية (الوصايا) وعلى  
رأسها التوحيد (أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)(الأنعام:151)، والتي جاء بها  
جميع الأنبياء والمرسلين، وتجمعها في الصراط المستقيم وهو السبيل  
إلى الله، وما عداه فسبيلٌ متفرقةٌ تقود إلى غيره.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً - العربية والمترجمة:

- 1- ابن النديم البغدادي (محمد بن اسحق)، فهرست ابن النديم، تحقيق رضا تجدد.
- 2- ابن جرير الطبري (أبي جعفر محمد)، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، بيروت: مؤسسة الأعلمي.
- 3- ابن شعبة الحراني (أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين)، تحف العقول/ قدم له محمد حسين الأعلمي، ط5، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1974 /1394.
- 4- ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا)، معجم مقاييس اللغة، ط1 [جديدة مصححة وملونة]، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2001.
- 5- ابن قيم الجوزية، الروح/ حقهه وقدم له وعلق حواشيه محمد اسكندر يلدا، الإسكندرية: دار عمر بن الخطاب للنشر والتوزيع.
- 6- ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، تفسير القرآن العظيم ( تفسير ابن كثير)، بيروت: دار المعرفة، 1412هـ.
- 7- ابن ماجة (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني)، سنن ابن ماجة/ تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: نشر دار الفكر.
- 8- إرمان (أدولف) ، ديانة مصر القديمة: نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة/ ترجمة عبدالمنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1995 /1415.

- 9- ألدريد (سيريل)، أختاتون/ ترجمة أحمد زهير أمين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.
- 10- الجبوري (نظلة أحمد)، جريدة الزمان، العدد 1901، التاريخ 2004/9/1.
- 11- الراغب الإصفهاني، مفردات غريب القرآن/ تحقيق صفوان داودي، ط1، دمشق: دار القلم والدار الشامية، 1412.
- 12- الطبرسي (أبي محمد علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1415.
- 13- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة- توثيق حضاري.
- 14- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الخلق الأول - كما بدأكم تعودون.
- 15- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، نداء السراة - اختطاف جغرافيا الأنبياء.
- 16- حمادة (محمد عمر)، تاريخ الصابئة المندائيين، ط1، دمشق: دار الوثائق، 1998/1481.
- 17- داوود (أحمد يوسف)، الميراث العظيم، ط1، دمشق: دار المستقبل، 1991.
- 18- داوود (أحمد)، تاريخ سوريا الحضاري القديم-1 المركز، ط2، دمشق: مطبعة الكاتب العربي، 1997.
- 19- داوود (أحمد)، تاريخ سوريا القديم- تصحيح وتحرير، ط3، منشورات دار الصفدي، دمشق، 2003.

- 20- ديورانت (ول وايريل)، قصة الحضارة/ ترجمة زكي نجيب محمود، ط1، بيروت: دار الجيل، 1412 / 1992.
- 21- الزيات (أحمد حسن)، تاريخ الأدب العربي، ط7، بيروت: دار المعرفة، 2001م.
- 22- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، 1997.
- 23- شحور (محمد)، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي (فقه المرأة)، ط1، دمشق: الأهالي للتوزيع، 2000.
- 24- الشريف الرضي (محمد بن الحسين بن موسى)، نهج البلاغة/ شرح محمد عبده، بيروت: دار المعرفة.
- 25- الصدوق (محمد بن علي بن بابويه)، التوحيد/ تحقيق السيد هاشم الحسيني، قم: مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، 1387.
- 26- الطباطبائي (السيد محمد حسين)، الميزان في تفسير القرآن، ط2، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1392 / 1972.
- 27- الطبراني (سليمان بن أحمد)، المعجم الكبير/ تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط2، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، 1404.
- 28- الطوسي (أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن)، مصباح المتعبد، ط1، بيروت: مؤسسة فقه الشيعة، 1411 / 1991.
- 29- العقاد (عباس محمود)، الله/ إشراف داليا محمد إبراهيم، ط3، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ديسمبر 2003.
- 30- كامل (مجدي)، أشهر الأساطير في التاريخ، ط1، دمشق - القاهرة: دار الكتاب العربي 2003.

- 31- كريمير (صامويل نوح)، من ألواح سومر/ ترجمة طه باقر، بغداد، القاهرة: مكتبة المثني ومؤسسة الخانجي.
- 32- الكليني (أبي جعفر محمد بن يعقوب)، الكافي/ تحقيق علي أكبر الغفاري، بيروت: دار الأضواء، 1985/1405.
- 33- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)، مروج الذهب ومعادن الجواهر/ تحقيق شارل بلا، ط1، الناشر: منشورات الجامعة اللبنانية، 1979.
- 34- مظهر (سليمان)، قصة الديانات، ط2، القاهرة: مكتبة مدبولي، 2002.
- 35- أنس (مالك)، موطأ مالك/ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، مصر: دار إحياء التراث العربي.
- 36- الهاشمي (أحمد بن إبراهيم)، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي.
- 37- هورنونج (إريك)، ديانة مصر الفرعونية: الوجدانية والتعدد/ ترجمة محمود ماهر طه ومصطفى أبو الخير، مكتبة مدبولي.

#### ثانياً - الانترنت:

1- موقع النور:

<http://www.al-nour.com/bible/torah/torah8.htm>

2- موقع معابر:

السواح (فراس)، معتقدات الشرق القديم، وثنية أم توحيد:

<http://maaber.50megs.com>

ثالثاً - الإلكترونية:

أ - القرآن:

1 - سيمافور للتقنية، **مصحف النور للنشر المكتبي**، الإصدار الثاني، الرياض: المملكة العربية السعودية، 2001.

ب - التوراة:

1- Rick Meyers,E-Sword, Ver 7.1.0,2000-2004,

<http://www.e-sword.net>

2- Online Bible Millennium Edition. Version:1.11.90,

Mar 28, 2002,<http://www.onlinebible.net/>.

ج - أقراص مدمجة:

1 - مركز المعجم الفقهي، برنامج المعجم، الإصدار الثالث، قم المقدسة، 1421هـ.

2 - مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، **المكتبة الألفية للسنة**

النبوية، الإصدار 1.5، الأردن(عمان) : مركز التراث، 1999 /1419.

## فهرست المحتويات

4	..... المقدمة
11	..... الفصل الأول: المشروع الرباني.. الإنسان خليفة
12	..... مدخل
23	..... أولاً- الإنسان خليفة
29	..... ثانياً- الملائكة رُسلًا
31	..... أ- طرق اتصال الملائكة بالبشر
34	..... ب- أدوار أخرى للملائكة
37	..... ثالثاً- دور الأنبياء والرسل
41	..... الفصل الثاني: موحدون عبر التاريخ
44	..... أولاً- الحنفاء
48	..... ثانياً- المندائيون الصابئة
50	..... أ- عقيدتهم
52	..... ب- طقوسهم العبادية
57	..... ثالثاً- عرب العراق وسوريا
60	..... رابعاً- عرب وادي النيل
66	..... خامساً- أخناتون والتوحيد
70	..... الفصل الثالث: تعبير الأوائل عن عقيدة التوحيد
71	..... أولاً- الفكرة أرقى من الكلمة
75	..... ثانياً- الآلهة والأرباب
83	..... ثالثاً- إله واحد ومظاهر متعددة
84	..... رابعاً- إيزيس وأوزيريس هل هما حقاً من الآلهة!؟
94	..... خامساً- مكانة المعلمين
97	..... سادساً- مكانة الآباء
101	..... * انحراف الكهنة
104	..... * إشكال قرآني
109	..... الخاتمة
112	..... * وأخيراً لنا كلمة
116	..... قائمة المصادر والمراجع
121	..... فهرست المحتويات

## سلسلة عندما نطق السراة

1. مفاتيح القرآن والعقل.
2. التوحيد.. عقيدة الأمة منذ آدم.
3. جنة آدم تحت أقدام السراة.
4. اللسان العربي.. بعد فطري وارتباط كوني.
5. الإنسان الإنسان.. وتحسب أنك جرم صغير.
6. نداء السراة.. اختطاف جغرافيا الأنبياء.
7. ليلة القدر.. عيد الخليفة.
8. طوفان نوح.. بين الحقيقة والأوهام.
9. بين آدمين.. آدم الإنسان و آدم الرسول.
10. مسخ الصورة.. سرقة وتحريف تراث الأمة.
11. الأسطورة.. توثيق حضاري.
12. وعصى آدم.. الحقيقة دون قناع.
13. الخلق الأول.. كما بدأكم تعودون.
14. اليهود وتوراة الكهنة.

تسجيل: 414

[www.arab-unity.net](http://www.arab-unity.net)

